
الطبعة 2
الراحل
وقصص أخرى
سلسلة أدرينالين 1
دار اكتب

الـراحـل

الراحل
وقصص أخرى

سلسلة أدرينالين

1

الطبعة الثانية ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 26551 /2016

I.S.B.N: 978-977-488-490-0



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

الـــراحـــل

وقصص أخرى

قصص

سلسلة أدرينالين





دار اكتب للنشر والتوزيع



رِسالةُ الفِرعونِ الأخيرة

(كوبرا الملك)

رسالة الفقيهين الأخيرة

(القسم الثالث)

تحية إلى روح الباحث العظيم

د / عز الدين طه

الذي حاول كشف الحقيقة ولم يخشَ شيئًا



(1)

جامعة القاهرة - عام 1962

دقَّ جرس الهاتف، أمام رجلٍ أربعيني أنيق يرتدي البذلة الكاملة، ويضع منظارًا فرنسيًّا غالي الثمن، ويُطالع مجموعة من الأوراق التي أمامه، كان مُستغرقًا في القراءة لدرجة أنه لم يشعر برنين الهاتف سوى بعد فترة. نحّى الأوراق جانبًا، والتقط سماعة الهاتف الثقيلة في ضَجَرٍ قائلًا:

– ألو.

جاءه صوت أُنثوي ناعم على الطرف الآخر:

– مكتب الدكتور عز الدين طه؟!

– أيوه أنا الدكتور عز الدين.

– أهلًا وسهلًا يا دكتور، أنا (منار زغلول)، صحفية بجريدة أخبار اليوم.

صمت الدكتور (عز الدين) قليلًا مُعبرًا عن انزعاجه، بينما استطردت الصحفية:

– أُريد أن أتحدث لحضرتك، بخصوص اكتشافك العلمي عن لعنة الفراعنة.

تغيَّر وجه الدكتور، وبدا عليه الضجر، وعلا صوته قليلًا:

– أنا لن أتحدث عن هذا الموضوع في الصحافة، سوف أُعلن عن بحثي في مؤتمر صحفي عالمي، ويُمكنكِ حضور المؤتمر.

لم تستسلم الصحفية مدفوعة بقلة الخبرة وحماسة الشباب:

– ممكن أي تصريح للجريدة؟

ردَّ بعصبية:

– لا، والموضوع على قدرٍ كبير من السرية، ولا أدري كيف عرفتم هذا الموضوع.

شكرته الصحفية في غضبٍ، ثُم أغلقت الهاتف.

***

(2)

نفس الليلة – الساعة الواحدة صباحًا

يسير الدكتور عز الدين طه بسيارته في شارع الهرم حيث يقطن، يقترب من شارعه الجانبي.

لم يسهر مُنذ زمنٍ مع أصدقائه في مقهى (المولوية). كم كانت سهرة رائعة مع أصدقاء العمر! شعر أن ملامح الشارع قد تغيرت قليلًا عن الصباح، لقد صارت أكثر قدَمًا، البنايات المُرتفعة اختفت والطريق الأسفلتي تحول إلى طريق ترابيٍّ مُعبَّد، ولا يوجد به أيةُ مظاهر للحياة. ثم ظهرت مجموعة من الأعمدة الفرعونية على جانبي الطريق. سارت السيارة ببطء حتى توقفت في بهو ضخم. هبط (عز الدين) من السيارة مذعورًا، ما هذا؟! إنه لم يسلك طريق القرية الفرعونية أو تل

العمارنة، وزاد من فزعه صهيل فرس قويٍّ جاء من خلفه مُباشرةً فجعله يلتفت ناحية الصوت بقوة، ويشاهد عربة ملكية تجرها الخيول تقف مكان سيارته (الفيات) العتيقة. شعر برغبة في الفرار لكن نفيرًا قويًّا جاء من الباحة العلوية قضى على أيِّ فكرة للهروب شاهد مجموعة من الجنود الأقوياء، عُراة الصدور، يرتدون الزيَّ الفرعونيَّ الشهير ويحملون الأبواق، على يمين السُّلم الملكي ويساره الرابط بين البهو والباحة العُلوية، انحنى الجنود أثناء نزول شابٍّ جميل الطلعة، قويِّ العضلات، يرتدي ملابس فرعونية مُزركشة ويضع تاجًا ملكيًّا، يُزينه أفعى الكوبرا المصرية. وقف الدكتور (عز الدين) مشدوهًا، حتى اقترب منه الملك الشاب قائلًا بصوتٍ رجوليٍّ سميك لا يتناسب مع صغر سنه ورشاقة هيئته:

- كيف حالك يا عز الدين؟

رد عز الدين في وجلٍ:

- الحمد لله.

وضع الملك الشاب يده على كتف الدكتور (عز الدين) في حميمية قائلًا:

- من الجميل أن يكسب الإنسان مجدًا شخصيًّا، ولكن هذا المجد يجب ألا يكون على حساب أحد.

أجاب (عز الدين) في حيرة:

– من أنت؟ وعن أيِّ مجدٍ تتحدث؟

– أنت تعرفني جيدًا، فلقد زُرتني كثيرًا في الآونة الأخيرة، أو كما أسميتُها زيارات علمية، حتى تُثبت بها صحة نظريتك الخاطئة.

رد عز الدين في انفعال:

– نظريتي ليست خاطئة.

لم يرد الملك الشاب، بل وقف جامدًا وهو ينظر مُباشرةً في عين الدكتور (عز الدين)، ثُم مَدَّ يدهُ، إلى ثُعبان الكُوبرا الذهبي المُثبت في التاج، ومسح عليه مسحة خاطفة ثُم أطلق يديه مرةً أُخرى في اتجاه (عز الدين) الذي تراجع في ذُعر، بينما تحول ثُعبان الكوبرا الذهبي إلى ثُعبان حقيقي، هاجم عز الدين، لكنه تفادى ضربته في جزع، وانطلق في اتجاه سيارته والثُعبان خلفه، أغلق الباب، وحاول أن يُدير المُحرك، لكنه لم يعمل، كرَّر المحاولة مرةً ومرة، والسيارة ترفض أن تتحرك، بينما الثُعبان يتسلل إلى السيارة، يظهر رأسه ثم جسده وذيله الطويل، وهو يُصدر فحيحه المُخيف، حاول فتح الباب، لكنه فشل في فتحه، نظر إلى زجاج السيارة الأمامي ليجد رموزًا هيروغليفية مكتوبة بلونٍ دمويٍّ، صرخ بكل قوته لكن أحدًا لم يسمعه.

***

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

نهض الدكتور (عز الدين طه) من نومه مفزوعًا، التقط سيجارة من العُلبة النائمة فوق المنضدة، وأشعلها في توتر:

- كان كابوسًا فظيعًا، لكنه لم يكد يُكمل جُملته، فلقد وجد نفس الرموز الهيروغليفية الدموية مكتوبة على مرآة غُرفة نومه.

***

(3)

(سيضرب الموت بأجنحته كلَّ من يُقلق منام الملك)

عبارة بسيطة، خطتها الدكتورة (سهام سمير)، أُستاذ اللُّغة الهيروغليفية، بحروف أنيقة، وقدمتها إلى صديقها القديم الدكتور (عز الدين طه)، بعدما سمعت منه ما حدث ليلة الأمس، حملق عز الدين في الورقة، ثم قال في حيرةٍ:

– وماذا يعني هذا؟

– يعني هذا أحد احتمالين، إما أن ما حدث هو نوعٌ من الهلاوس البصرية نتيجة ضغط العمل، أو أن الملك قد زارك بفعل سحر أسود أو شيء من هذا القبيل.

– أيُّ ملك؟!

– الوصف الذي ذكرته وأفعى الكوبرا تؤكدان أن الذي زارك بالأمس هو الملك (توت عنخ آمون) الفرعون الشاب، فهو يُحذّرك بألّا تُكمِل البحث في لعنة الفراعنة.

– كيف أُوقف هذا الاكتشاف العلمي المهم، من أجل الأوهام، والخُرافات؟!

نظرت له في إشفاق، وهي تُخرج ملفًا أزرق أنيقًا، مكتوبًا عليه

(دراسة عن لعنة الفراعنة) (سري).

قائلةً له:

– أعلم أن لك موقفًا من حوادث الموت العرضي للباحثين، وربطها بلعنة الفراعنة. ولقد عملت مع جهة أمنية تبحث في هذا الموضوع، وحصلت على نسخة من هذا التقرير المهم، سأُطلعك عليه بالرغم من كونه سريًّا، لعلك تتريث قليلًا يا صديقي، فأنا أخشى عليك.

وضعت الملف أمامه. وانصرفت، بينما جلس عز الدين يتأمله في كثير من الحيرة والريبة.

حدَّثَ نفسه قائلًا:

– لن أخسر شيئًا عندما أطلع على ما به من معلومات.

***

(4)

الأقصر عام 1922 – منطقة البر الغربي

كان اليأس قد تسلّل إلى نفس عالم الآثار الإنجليزي (هوارد كارتر) وهو يُشاهد عُماله وهم يحملون معاولهم ويحفرون عند النفق المؤدي إلى مقبرة رمسيس السادس، كان مُساعده (كالندر) يناوله المياه وبعض الأطعمة الجافة، وهو يشعر أن أستاذه اليوم ليس على ما يُرام، اقترب منه قائلًا:

– أنت اليوم مُختلف يا سيدي، تبدو في حالة غير جيدة.

نظر له (كارتر) في حُزن قائلًا:

– لا أعتقد أن هناك جدوى من البحث، فالنتائج مُخيبة للآمال، وذلك العجوز الخرف (كارنافون)، يُهددني بسحب تمويله إن لم نجد (الفرعون المجهول) في خلال عام.

– لا تهتم يا سيدي، واستمر في الحفر.

– أعتقد أن هذا هو خياري الوحيد يا (كالندر).

استمر الحفر مرة أُخرى مُدة ساعة، ولاحظ (كارتر) وجود قبو كبير، فنادى مُساعده:

– كالندر، انظر هناك، لعل ما نبحث عنه قد بدأ يظهر.

– بالفعل إنه قبو كبير، يجب أن نحفر فترات أطول، مهما يكلفنا الأمر.

***

ثلاث أيام كاملة وفريق العمل كُله يحفر، وقد عاد النشاط إلى (كارتر). ربما يحل ذلك القبو جميع مشكلاته، فمستقبله المهني كونه باحث آثار قد صار على المحك، بعد تهديد (اللورد كارنافون) بقطع التمويل عنه.

حل المساء وانتشرت الذئاب في المنطقة، فشرع كالندر في نصب الخيام، بينما شرع الخفير (مستور) في إشعال نار المُعسكر حتى يسهل له الحراسة وإخافة (الذئاب).

– استرح قليلًا يا سيدي، فأنت لم تنم مُنذ أيام.

كان (كالندر) قد أشعل الموقد وأعد الشاي، وقدّمه له، بينما كارتر يجلس على ربوة عالية فوق وادي الملوك، والشمس تغرب عن الوادي، كان ينظر إليه بإعجاب ورجاء، وكأنه يُناجي حبيبًا.

- أعلم أنك تحمل الكثير من الأسرار، لكنك ضنين لن تبوح بها بسهولة، والثمن قد يكون باهظًا! عُمرى كُله! كم من عاشقٍ مات هُنا! وكم من باحث عن مجدٍ، طويته بين جنباتك! إنه لشيءٌ عظيم أن تقف في حضرة الملوك، هذه الأرض كم هي محظوظة بخيراتها، منكوبة بأهلها الذين يتعاملون مع كُل شيء بجهلٍ مُطبق، لو نصف هذا الجمال عندنا في بلاد الضباب، لزحف البشر من كُل البقاع لمشاهدته، لكنها حكمة الخالق الكبير.

لاحظ شيئًا مُدهشًا عند ظهور القمر، شيء ما ينعكس من الفتحة الصغير في القبو الكبير في أسفل باطن الوادي، لكنه رأى النقطة المضيئة بوضوح، فصرخ على كالندر.

- انظر يا كالندر، الوادي يبوح بسره، هيا نهبط.

استنكر (كالندر) ذلك الفعل المتهور قائلًا:

- أستحلفك بالله ألا تفعل، فالخطر يُحدق بنا من كُل مكان الآن، انتظر حتى الخيوط الأولى من الفجر، حين عودة العمال.

قاطعه (كارتر) في عصبية:

- سيختفي الضوء ولن نتمكن من رؤيته بسهولة، لقد حدّدت مكانه جيدًا ويمكننا الهبوط الآن، إنها فرصة عظيمة والقمر ساطع فإما نحصل على كل شيء وإما لا شيء.

هبط (كارتر) بعدما حمل مُعداته خلف ظهره، وخلفه هرول (كالندر)، والغفير المسكين الذي بدا متوترًا من هؤلاء المجانين.

(5)

صبيحة يوم الاكتشاف

(أنا هوارد كارتر، أول من وَطِئت قدمه مقبرة الملك مُنذ ثلاثة آلاف عام، أنا المُكتشف العظيم).

من مُفكرة كارتر

***

– إنه لأعظم اكتشاف في التاريخ، مقبرة ذهبية كاملة المُحتويات لم تمتد لها يد اللُّصوص.

كان كارتر يصرخ في فرحة عفوية كالأطفال بينما مُساعده (كالندر) يحتضنه في سعادة، وقد بدا التأثر على وجهه من كثرة ما لقيه من مشقة في ذلك العام.

لقد كانت مومياء الملك الصغير ترقد داخل تابوت ذهبي خالص، أجمل تابوت في تاريخ البشرية جمعاء. كانت المقبرة مُذهلة إلى حد الجنون، فهي أثمن وأقيم من كُل ما كشف عنه الرجال في حفرياتهم السابقة، كئوس وأوانٍ من الألباستر، عربات تلتمع بالذهب ومُطعمة بالأصداف، تمثالان للملك بالحجم الطبيعي يواجه كلٌّ منهما الآخر، ويُمسك كل واحدٍ منهما صولجانه الذهبي، وفوق جبهة كُل تمثال (ثُعبان الكوبرا) المُقدسة الحامية للملك.

وجَّه كارتر المُنتشي حديثه إلى مساعده:

– يجب علينا، وضع حراسة جيدة هنا، وإبلاغ مستر (كارنافون) في القاهرة، لا بد أنه سيُصاب بلوثةٍ من جرّاء ذلك الخبر العظيم! أليس كذلك يا (كالندر)؟

بدا المساعد شاردًا قليلًا وهو يتصبَّب عرقًا قائلًا بصوتٍ أصابه الوهن:

– نعم، نعم، بالتأكيد يا مستر (كارتر).

شعر (كارتر) أن مساعده (كالندر) ليس بخير، فهو يرتعد قليلًا ويتصبَّب عرقًا فقال له:

– تبدو مريضًا يا (كالندر) أعرف أنك بذلت مجهودًا خُرافيًّا، ولذلك سوف أُعطيك راحة اليوم، لُنكمل إنجازنا غدًا بالإشراف على إعداد المقبرة حتى تكون جاهزة.

نظر له (كالندر) نظرة محمومة وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

– بالفعل يجب علينا، إعداد المقبرة!

شعر كارتر أنه مريض بالفعل فقال له:

– هل تريد زيارة الطبيب؟!

نظر له كالندر قائلًا:

– لا، فلا وقت لذلك، فأنا سأكون بخير، فقط أوصلني إلى غُرفتي.

سار به (كارتر) حتى الطريق المُعبد بمساعدة الغفير (مستور)، ثُم حملاه إلى العربة التي تجُرها الأحصنة، وانطلقا حتى أوصلاه إلى المترل.

عاد (كارتر) إلى مترله، والصباح لا يزال بكرًا لكنه طلب مُكالمة عاجلة إلى القاهرة.

ردَّ (كارنافون) بعد بُرهة، وجن جنونه عندما علم بالخبر صرخ قائلًا:

– لقد نجحنا يا كارتر، سوف يهُزُّ هذا الخبر العظيم العالم بعد ساعات قليلة، سأحصل على حمامي، وأحلق ذقني، ثم سأتصل بكل أنحاء العالم.

ثم أغلق الهاتف.

شعر(كارتر) بأن حجرًا ثقيلًا قد أُزيح من على صدره، فمهمته في كشف مقبرة الفرعون المجهول الراقد في وادي الملوك قد تمت بنجاح، تأمَّل النيل القوي الذي يجري أمامه كشابٍّ في العشرين، وصوته الهادر مسموع بوضوح، لقد رآه من غرفة (كارنافون) في الفندق، في القاهرة صار أكثر خنوعًا ووداعة، وكأنه قد تم ترويضه في الطريق الطويل.

تنفس بعمق وهو يقول في ارتياح:

- يا لهُ من يومٍ رائع مليء بالإنجازات.

حمل عصفوره الكناري الذهبي المُحبب إلى قلبه، ووضعه في شُرفة المنزل المُطلة على النيل، قائلًا له:

- سأتركك هُنا لتستمتع بشمس الصباح يا صديقي، وسأحظى أنا بفطور جيد بعد كُل ذلك الطعام الجاف الذي أكلته في مُخيم الاستكشاف، فمن حقي أن أنعم ببعض التدليل.

جلس يُدخن (غليونه) الإنجليزي، بعدما تمتع فطور جيد، تناول مُفكرته، وجلس يُدون بعض المُلاحظات، قطع تأملاته صراخ ضعيف قادم من الشُّرفة، إنه العصفور يستغيث من شيءٍ ما، هرول (كارتر) إلى هناك لكنه لم يصدق ما رأى، أفعى كوبرا ضخمة تلتهم العصفور المسكين، ليتناثر ريشه الذهبي مُختلطًا بالدماء في كُل مكان، ثُم فرت هاربة.

بكى (كارتر) عصفوره الحبيب، لكنه لم ينسَ عيني الكوبرا قط، إنها هي وكأنها قد خرجت لتوها من تاج الملك، زاد من فزعه طرقات قوية على الباب الخارجي، يتبعها استغاثة،كان ذلك الصوت الجهوري هو صوت الغفير (مستور):

– الحق يا خواجة، الحق يا خواجة.

هرول (كارتر) إلى الباب، وهو يحاول تجميع كلمات قليلة باللغة العربية الركيكة:

– إيه (مستور)! مالك؟

– الحق يا خواجة، الخواجة صاحبك قاطع النفس!.

***

(6)

عاصمة الضباب - (لندن)

إنه يومٌ عصيب...

كان (كارتر) يبكي صديقه، ومُساعده كالندر الذي كان يتناول معه الطعام، ويُخيّمان معًا منذ يومين فقط.

جلس في حديقة مترل كالندر، دخلت سيدة عجفاء قوية الملامح خضراء العينين، تتشح بالسواد، وهي تقترب من(كارتر) الذي كان جالسًا فنهض مُقبلًا يدها، قائلًا:

– تعازيَّ القلبية يا سيدة (بروك)، لقد كان ولدك (كالندر) من أعظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي.

نظرت له في كُرهٍ واضح قائلة ببرود إنجليزي:

- شكرًا لك مستر (كارتر)، ولكن كيف مات (كالندر)؟، لقد كان بصحة جيدة، أنت تعلم ذلك، لقد كان بطلًا للمصارعة.

كانت السيدة الإنجليزية تدمع، وقد مالت عيناها الخضراوان إلى الاحمرار من فرط البُكاء، كان (كارتر) نفسه حزينًا ولا يملك تفسيرًا لما حدث، فمط شفتيه في حيرة قائلًا:

- لقد أصابته حُمى غريبة بعد اكتشاف المقبرة.

ظلت السيدة تفرك يديها بعصبية، وكأنها على وشك الانفجار، وهي تقول:

- تلك المقبرة اللعينة، لقد حذّرته من الذهاب إلى تلك البلاد، لكنه سار خلفك دون وعيٍ، اللعنة عليك، وعلى مقبرتكم القذرة، لقد ضاع ابني الوحيد بسببك.

كانت السيدة (بروك) قد أُصيبت بهياج جعلها تُهاجم (كارتر) بشراسة كنمرة جائعة، وتخمش بأظافرها وجهه، وظل هو مُندهشًا من رد فعلها العدواني، فحاول الهرب منها، وهو يستغيث بزوجها:

- يا مستر (بروك)، يا (مستر بروك)!

كان الخدم قد أحاطوا بها، وخلصوا (كارتر) من بين يديها، بينما تخلت السيدة (بروك) عن برودها الإنجليزي، وعلا صوتها بالبُكاء وهي تقول:

-(مستر بروك) على مشارف الجنون مُنذ أن سمع الخبر وهو لا يخرج من غرفته مُنذ يومين، لقد تسبّبت بضياع هذه الأسرة بسبب غرورك،ورغبتك في الحصول على مجد شخصيٍّ، لقد جعلت (كالندر) مهوسًا مثلك بذلك العالم المُتخلف، وهذه هي النتيجة، لقد صرتُ أُمًّا ثكلى ونصف أرملة.

خرج (كارتر) حزينًا إلى الكنيسة التي سيقُام بها القُداس على (كالندر)، كان شاردًا جدًّا أثناء القداس وأثناء سير الجنازة، حيث وُضِعَ تابوت مُساعده (كالندر) فوق عربة تجرها الخيول، وهي تسير في طرقات المدينة. كان يحدث نفسه قائلًا:

- أأنا من تسبَّب في مقتل كالندر؟! كيف؟! لقد انتقل له حب التنقيب من ملازمته لي فترة طويلة، لكنني لم أقصد، لم أقصد، كان يسير في آخر الصف، لكنه سمع صراخًا عنيفًا وهرجًا قادمًا من المُقدمة، لقد هاجت الأحصنة لسبب ما، وانطلقت تجري بتابوت (كالندر) وكانت النتيجة، أنها دهست طفلًا صغيرًا، فمات، لقد كان منظرًا في غاية الألم، وأُمه تحتضنه وتصرخ في لوعة.

لقد تلفت أعصاب (كارتر) فهو الآن خائر القوى، وسوف يعود إلى المنزل، إقترب سيرًا على الأقدام من حديقة منزل (كالندر)، ألقى نظرة على الفناء الذي طالما تحدثا فيه، وتناولا الشاي هناك، ما هذا اليوم، إنه بلا شك أصعب يوم مرَّ على كارتر في حياته، فهو لم ينتهِ

من المرور أمام المنزل، حتى سمع صوت رصاص قادمًا من الطابق العلوي لبيت (كالندر)، وقف مذهولًا وهو يكاد يُخمن، وبالفعل جاءته الإجابة على هيئة صراخ واستغاثة من الخدم:

– لقد انتحر السيد (بروك). برصاص مسدسه!

***

أغلق الدكتور (عز الدين) الملف الأزرق، وعاد بكُرسيه إلى الوراء، شاردًا بذهنه، كان عقله لا يُصدق ما قرأه، على الرغم من كونه موثقًا تاريخيًّا، يهمس إلى نفسه وهو يتطلع إلى الآية القرآنية المُعلقة في غُرفة مكتبه المنزلي موضوعة في إطار ذهبي أنيق، بسم الله الرحمن الرحيم:

(قُل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا)

تأمَّل اللوحة بحبٍّ، كم كان يعتز بها كثيرًا، لقد كان والده أستاذًا جامعيًّا يهوى الخط، وكم خطّ من لوحاتٍ شديدة الاحترافية والرُّقي، وكان (عز الدين) يعتبر أن تلك اللوحة، هي إرثه الحقيقي من والده الذي كان يعتز به كثيرًا، وهي الرسالة التي تركها والده، كُلما اشتدَّ به الحال، لجأ إليها وتأمَّلها:

– نعم، ولا راد لقضائه، كُلُّ شيء له تفسير علمي، ثلاث سنوات من البحث عن سبب موت الباحثين، الفطريات التي تنجم

من فضلات الخفافيش والقوارض، الهواء الفاسد والسموم التي كانوا ينثرونها داخل مقابرهم، كُلها عوامل كفيلة أن تقتل فيلًا. ظل يُردد في سره وهو يتأرجح على كُرسي هزاز في شُرفة منزله:

- كُلُ شئيٍء له سبب علمي، كُل شيٍء له سبب علمي.

***

(7)

فندق الكونتنينتال - القاهرة 1923

وقَفَ اللورد (كارنافون) مُموِّل عملية البحث عن الفرعون، وهو يرتدي ملابسه القطنية الداخلية، وهو يتحدث في سعادة إلى (كارتر) في الهاتف قائلًا:

- كم هو عظيم هذا الاكتشاف يا كارتر! لقد أذهلني ما رأيت، كُنت أتحرك داخل مقبرة الملك، وكأنني أحلم، بالفعل هذا هو الحُلم الذي انتظرناه طويلًا، كما أن المؤتمر الصحفي الذي أُعد له سوف يُزلزل العالم.

كان الدكتور (عز الدين طه)، يُراقب ذلك الرجل الألماني النحيل، وهو يتحدث في سعادة. إنه بالفعل في غُرفة (اللورد كارنافون) شريك (كارتر) في اكتشاف المقبرة الذهبية.

ما الذي أتى به إلى هُنا؟!هو لا يعرف، لكنه لاحظ أن (كارنافون) لا يراه وكأنه قد صار شبحًا، فالرجل يتحرك في الغُرفة وكأنه وحيد.

أنهى المُكالمة الحماسية مع (كارتر) وهو يقول:

– يجب أن نستعد جيدًا للحدث العظيم، سآتي إليك غدًا.

انطلق اللورد إلى الحمام، ووقف أمام المرآة يتأمل ملامحه الدقيقة في فخر، وهو يضع صابون الحلاقة على ذقنه، كان عز الدين يُتابعه في اندهاش، صدرت منه شهقة فزع مكتومة، عندما رأى الفرعون الشابَّ يقف بجوار (كارنافون)، وينظر إليه في غضب، كان الفرعون يبتسم ابتسامة الموت، وكارنافون لا يشعر بشيء، رفع الفرعون يده ولمس بها ذقن (كارنافون)، لمسة خاطفة، صرخ على أثرها اللورد وسالت الدماء من ذقنه، لقد أصابته ماكينة الحلاقة، خرج مُسرعًا من الحمام، ليجري إلى هاتف الفندق، وطلب مُسعفًا ليوقف له النزيف الذي استمر بشكلٍ غريب، تابع (عز الدين) محاولة إسعاف (كارنافون)، لكنه لاحظ شيئًا مكتوبًا بالدم فوق مرآة الحمام، إنها نفس الرموز الفرعونية التي وُجِدَت على جدران المقبرة:

(سيضرب الموت بجناحيه كُلَّ من يُقلقِ منام الملك)

سقطَ (عز الدين) من فوق كرسي مكتبه واستيقظ. كابوس مرة أُخرى! يبدو كرسالة موجهة، انتابه الفضول لمعرفة ما حدث للورد، يعلم أنه مات محمومًا، لكنه لم يسأل يومًا كيف، فتحَ الملف الأزرق بيدٍ مُرتعشة، حتى وصل إلى الفقرة التي تتحدث عن (اللورد كارنافون)..

" اشتدَّ المرض على اللورد (كارنافون) الشريك الثاني في اكتشاف مقبرة الفرعون الذهبي (توت عنخ آمون)، وقد أرجع الأطباء هذا المرض الشديد بسبب جُرح أصابه أثناء الحلاقة، وكان سبب دهشتهم أن جُرح الحلاقة لا يسبب كلَّ هذه المُضاعفات، إلا في حالة تعرض الرجل، لشيءٍ غامض قد يكون بسبب الكائنات الدقيقة التي تكوَّنت على جلده، أثناء زيارته للمقبرة، أو يُمكن إدراجه ضمن الحوادث الغامضة التي تعرَّض لها فريق البحث بالكامل التي حملت عنوانًا واحدًا اسمه: (لعنة الفراعنة).

رقد (اللورد كارنافون) في غيبوبة عدة أيام وكان (كارتر) يجلس بجواره باستمرار، كما حضرت زوجتُه من ألمانيا، وحَضَرَ ابنُه من الهند، وفي النهاية خرجت المُمرضة بالمستشفى تُعلن خبر وفاة اللورد، ويقول ابن اللورد كارنافون:

" تُوفِّي والدي وقد خلَّد التاريخ اسمه بالفعل، فلقد قدم للبشرية إنجازًا عظيمًا، لكن يوم وفاته كان غامضًا وحزينًا، فالكهرباء قد

انقطعت عن القاهرة بأكملها ساعة الموت، حتى أننا سألنا المسئولين عن الكهرباء، لكنهم لم يجدوا تفسيرًا لما حدث".

أغلق عز الدين الملف بعصبية، وأشعل سيجارة، ونفثَ دُخانها في الهواء في توتر، يشعر أن جسده يرتعد، ورأسه تكاد تنفجر، لقد مال في قرارة نفسه إلى إيقاف كُل شيء.

جاءه رنين الهاتف الطويل، إشارة أنه يتلقى مكالمة من الخارج، جاءه صوت صديقه العالم الإنجليزيء دكتور(مالكوم سبنسر):

– هالو د. (عز الدين)، كيف حالك يا صديقي؟

أجاب عز الدين في فُتور:

– أهلًا دكتور (مالكوم)، كيف حالك؟

كان عز الدين يتابع ستائر غرفة مكتبه المُطلة على النيل،وهي تهتزُّ بفعل الهواء الشديد، اعتراه شيءٌ من دهشة، عادةً لا تهتز الستائر بهذا القوة في شهر أغسطس!

– أنا بخير،ومتشوق جدًّا للحضور إلى القاهرة بعد يومين، سيكون المؤتمر رائعًا وعالميًّا، سيقلب كُل الموازين، فلقد راسلت كل الوكالات الأجنبية، وحصلت على تأكيد بالحضور، ونحن نعتقد أن اكتشافك سوف يكون مُذهلًا بكل المقاييس.

كان (عز الدين) يسمعه، وقد فقد حماسته تمامًا، وبلغ منه الإعياء مبلغه، ودرجة حرارته ترتفع، لقد بدأ يهذي، إنه يرى شخصًا قويًّا يبتسم من خلف الستائر!

ما هذا؟!..

إنه الملك (توت عنخ) شخصيًّا.

شعر بضيقٍ في التنفس، وبرغبة شديدة في النوم،

فسقطت سماعة الهاتف من يده، وأظلمت الدنيا تمامًا.

***

(8)

غدًا المؤتمر ولا أدري ماذا أفعل؟ هل أوقف هذا الجحيم، وأخسر كُل شيء؟ مصداقيتي ومستقبلي العلمي وسمعة مصر أمام الوكالات الأجنبية؟! لن يغفر لي أحدٌ مثل ذلك الخطأ القاتل، سأكون وقتها أُضحوكة الجميع سنوات قادمة، أم أنشر ذلك البحث الذي بذلتُ فيه مجهودًا مُضنيًا للعالم مُتغاضيًا عن كل تلك الرسائل التي أرسلها الفرعون لي! من سينتصر في النهاية العِلم أم الخُرافة؟! أنا في حيرة يا ربي، دلني إلى طريق الخير. كان عز الدين يجلس وأمامه ورقة كبيرة مكتوبًا عليها:

(سيضرب الموت بجناحيه كل من يقلق منام الملك)

كانت يداه لا تزالان ترتعشان من التوتر، عندما امتدت يد بيضاء،وصارت تمسح بأصابعها المكتوبة،الرموز الموجودة على الورقة،

ثُم عادت لتكتب بقلم جميل من البوص، مغموس في مداد رائحته أطيب من المسك، نفس الآية المُعلقة في غرفة المكتب،

بسم الله الرحمن الرحيم:

(قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا).

صدق الله العظيم،

رفع عز الدين عينيه ليرى صاحب اليد، ذلك الوجه المُحبب إلى قلبه،وجه الدكتور(طه الكسباني)، أُستاذ الفقه بجامعة الأزهر، احتضنه بشدة وكأنه يحتمي به من الدنيا بأسرها، بكى في أحضانه كطفلٍ تائه، المكان الوحيد الذي لا تخجل من ضعفك فيه هو حضن أبيك، حضنٌ يسع العالم بأسره.

- أنقذني يا أبي، دلّني على الصواب، أنا لست مؤمنًا بالخرافات، ولكنني صرتُ خائفًا من كل شيء وعلى كل شيء.

كان الأب يبتسم في حنُوٍّ لولده، وكأنه يراه يوم عودته من أول يوم له في المدرسة الابتدائية، لقد ابتسم يومها ولمعت عيناه بالدموع، أشار إلى الورقة قائلًا:

- يا بني، افعل ما تؤمن به، لا ما تؤمر به، وتذكر أن لكل أجل كتاب، فلك عمر لن تتجاوزه ثانية واحدة، ولك رزق سيأتيك سيأتيك، ولك ساعة إن حانت فإنها حانت، فلا تخشَ شيئًا، وكن

شُجاعًا، وتوكل على الله، نظر له عز الدين في راحة يشوبها بقايا القلق:

- ولكنها قد تكون النهاية!

ابتسم الأب في حكمة قائلًا:

- وما يدريك لعلها تكون البداية.

اقتربت أفعى الكوبرا من عز الدين وهي في حالة تحفُّز، وتأهبت لتنقضَّ عليه، إلا أن الأب في سُرعة خاطفة، قبض على رقبتها، وأخذ يعتصرها، بقوة حتى أرداها قتيلة، ثُم ألقاها تحت قدم عز الدين قائلًا:

- الخوف لن يمنع عنك الموت، ولكنه بالتأكيد سوف يمنع عنك الحياة، فقل كلمة الحق، ولا تخف.

فتح الدكتور عز الدين عينيه في المستشفى، ليرى المُمرضة تبتسم في وجهه وهي تقول:

- الحمد لله على سلامتك، يا دكتور.

***

(9)

احتشدت قاعة الفندق الخمس نجوم، بالعديد من وكالات الأنباء الأجنبية، والصحفيين والمهتمين بمجال الآثار، استعدادًا لبدء المؤتمر.

ساد الصمت القاعة، عندما جلس الدكتور (عز الدين طه) أُستاذ علم المصريات، على المنصة الرئيسية وبجواره الدكتور (مالكوم سبنسر) ورئيس الجامعة، ساعة كاملة، استعرض فيها الدكتور (عز الدين) أوراقه البحثية أمام الحاضرين، ليقطع الشك والتخوف حول الأحداث المتكررة التي تقع للعاملين في حقل اكتشاف المومياوات، وقال في نهاية المُحاضرة.

(وفي نهاية بحثي، أكاد أُرجّح أن حوادث الموت المُتكررة والغريبة للباحثين كانت بسبب نوع غامض من السموم ينثره الفراعنة في

مقابرهم، وظهرت بشكل واضح ومُكثف في مقبرة الملك (توت عنخ آمون)، التي كانت قاسمًا مُشتركًا لحوادث موت الباحثين، ولقد تم اكتشاف تلك السموم المُستخلصة من أفعى الكوبرا المصرية، حارسة المقبرة، بالإضافة إلى الفطريات والكائنات الدقيقة، التي تنشط في المقبرة، وكذلك الهواء المُحتبس داخل المقبرة، مُنذ آلاف الأعوام، قد فسد وصار مُشبعًا بالسموم والكائنات الدقيقة، وحل هذه المشكلة بسيط، بترك المكان المُكتشف مفتوحًا لعدة أيام وبعد ذلك يُمكن للباحث الدخول بلا مشكلات، وعليه فأنا أُعلن على مسئوليتي الشخصية، أنه لا يوجد ما يُسمى بلعنة الفراعنة، وأُثبت ذلك بالدليل القاطع في بحثي وشُكرًا).

ضجّت القاعة بتصفيق حادٍّ، واحتشدت الجموع ووكالات الأنباء حول الدكتور (عز الدين) تناقشه، وتحصل منه على تصريحات صحفية.

***

(10)

بعد عدة أيام..

الآن، وقد انتهى كُلُ شيء وانتصر العلم على الخُرافة، أعتقد أنني في حاجة إلى إجازة.

اتصلَ الدكتور (عز الدين) بزوجته من المكتب قائلًا:

– أعتقد أنكم جميعًا تحتاجون إلى إجازة.

ضحكت زوجته قائلةً:

– لقد نسينا هذا المُصطلح مُنذ زمن يا دكتور، لقد اختطفك الفراعنة منا مُنذُ ثلاث سنوات!

لم يعرف لماذا أصابته تلك العبارة بغُصة في حلقه، فرد باقتضاب:

- سأُنهي عملي، وأمرُّ عليكم، فاستعدوا.

بعد ساعات – طريق القاهرة السويس..

الهواءُ مُنعش، والشمس ساطعة، وصوت أُم كلثوم الرائع يصدح من راديو السيارة:

- خُد عُمرى كله، بس النهاردة .. خليني أعيش.

الأولاد يلعبون في الكرسي الخلفي للسيارة، كانوا سعُداء بالسبق العلمي الذي تكلم عنه العالم، وبصورة أبيهم تملأ الجرائد العالمية، واكتملت السعادة بحصولهم على الإجازة، كان (عز الدين) ينظر بتحدٍّ إلى الطريق، شيء ما جعل أعصابه مشدودة، لاحظ أن الرؤية قد صارت مُشوشة قليلًا، والسيارة قد صارت أبطأ على الرغم من سيره بشكل طبيعي، حاول أن يضغط بقدميه ليزيد من السرعة، لكنه شعر أن قدمه اليمنى قد غاصت في شيءٍ لزج يتحرك! إنها هي (كوبرا الملك) وهي تزحف من أسفل على ساقيه، ثم تتحرك على جسده! بينما أبواق الترحيب بالملك غطّت على صوت (أُم كلثوم)، كانت عالية بشكل مُخيف، وكأنها طنين مُزعج قادم من رأسه، لم يسمع صوت زوجته، التي تهزه بُعنف، وإنما رأى تلك اللافتة التي أمامه:

(سيضرب الموت بجناحيه من يُقلِق منام الملك)

والده يبتسم في حنو، قد تكون البداية:

- إنه وهم (يا عز الدين)، وهم، إنه اختيارك.

اختفى والده، وظهر الفرعون يبتسم قائلًا:

- إنها رسالتي الأخيرة يا عز الدين، لقد حذّرتُك من قبل.

لم ينتبه لتلك السيارة القادمة أمامه، فضغط على مكابح السيارة بكل قوة.

***

صباح اليوم التالي خرجت الصحف بخبر غريب:

وفاة الباحث الأثري الدكتور (عز الدين طه)، إثر أزمة قلبية، تسبّبت في انقلاب سيارته، بينما نجا جميع أفراد أُسرته من الحادث الأليم.

خرجت الدكتورة (سهام سمير) من عزاء الدكتور عز الدين طه باكية، استقلت سيارتها، ثُم أخرجت الملف الأزرق من حقيبة يدها، فتحت آخر ورقة، وعلى الهامش الأبيض، خطت بقلمها اسمًا جديدًا:

(عز الدين طه)

إيهاب عصمت

خُـنثى



توقّف القطار أخيرًا في محطة مدينتي. هذه ثالث مرة أعود فيها إلى بلدتي خلال شهر واحد، لكنني أحسستُ أن المسافة بين القاهرة وبين مدينتي الواقعة في محافظة سوهاج قد طالت فجأة أكثر من المرات السابقة كلها.

أكان هذا تَخيُّلًا أم هلوسةً بسبب شدة النعاس الذي داهمني طوال الطريق؟ كنتُ أشعر أن رأسي معلقٌ في الفضاء بدون شيء يمسكه وتسقط عيناي مغلقتين وأذهب في نوم عميق مدة خمس أو ست دقائق حتى لكزني صديقي الجالس بجواري:

– فوق يا عم.. إنت كده مش هتعرف تروّح بيتكم!.

صديقي، وزميلي "هشام" كان قادمًا معي على نفس القطار، لكنه سينزل في مرحلة تالية لي لأنه من مدينة "أبو تشت":

- الواحد نعسان على الآخر والله يا أبو الهشاشيم.

ضحك، وقال لي وهو يوقف بائع حمص، وترمس ولب ويبتاع لنا قليلًا منه للمرة الثانية:

- خُد قزقز، واتسلّى.. يمكن تفوق حبتين!

ويبدو أن حظي سيئٌ، فلم أكد أضع أول حبة ترمس في فمي حتى وجدت القطار قد توقّف:

- هو إحنا عدّينا جرجا؟!

رد عليَّ، وهو يقزقز الترمس بنهم:

- من بدري يا عم الحاج!

- يا لهوي!

قمتُ واقفًا وأنا أسحب حقيبتي من فوق رأسي، وهرولتُ ناحية أحد أبواب القطار المفتوحة، وبسبب النُّعاس والصداع وقلة الضوء لم أستطع أن أُميِّز المحطة في البداية.. صادفت رجلًا بَدينًا يحمل حقيبة، وسبتًا في يديه، يهمُّ بركوب القطار فسألته فورًا:

- مش دي محطة..؟

ذكرت له اسم مدينتي فقال، وهو يتجاوزني ويدخل إلى العربة:

- أيوه يا ولدي.. هي!

سارعتُ بالنزول قبل أن يتحرَّك القطار ثانيةً، ثم جريت على الرصيف حتى وصلتُ إلى النافذة التي يجلس " هشام " بجوارها، ووجدته يمد رقبته مستطلعًا في كل مكان باحثًا عني كما يبدو:

- أنت وصلت حمد الله على السلامة!

- أيوه يا عم الحاج.. المحطة كانت هتفوتني من تحت راسك!

ضحك، وقال لي، وهو يناولني كيس الترمس الذي نسيته معه:

- وإيه يعني! كنت كمّل معايا على أبو تشت، وإحنا كنا نضايفك هناك، ونقريك أحسن من ناسك يا واكلهم!

- يا عم روح.. أنتوا لاقيين تاكلوا!

أجبت عليه، وأنا أبتعد مُلوِّحًا له بيدي مبتسمًا وأنا أسمعه يضحك من خلفي!

***

كانت المسافة بين المحطة وبين بيتنا الواقع في طرف المدينة الآخر طويلة جدًّا، يبلغ طولها ثلاثة كيلومترات أو ربما أكثر. غادرت مبنى محطة القطارات نفسها، ثم انحرفتُ يمينًا لأمرَّ من شارع صغير يسيطر عليه الظلام في تلك الساعة المبكرة جدًّا من الصباح عدا بعض أعمدة الإنارة القليلة التي تعمل وتنير المنطقة حولها بشكل ما ومحل (سوبر ماركت) هو الوحيد الذي وجدته مفتوحًا في طول هذا الشارع

وعرضه. ذهبتُ إليه وشربت زجاجة كوكاكولا على الواقف لأنني كنت عطشانَ جدًّا بسبب الترمس واللُّب.

نقدته ثمن المشروب، ثم دخلتُ وسط الشوارع الطويلة المتفرعة من شارع المحطة حتى وجدتُ نفسي إزاء السور المنخفض الذي يحجب الترعة الذي قام معه الأهالي بالواجب تمامًا. فهو ملطخ تمامًا بكل أنواع القاذورات والخدوش والحفر، كما أن المتسوّلين اتخذوا منه، حتى قبل أن يتم بناؤه، موئلًا لهم. تجدهم هناك فرادى وجماعات جالسين بجواره، يتسولون، ويمدُّون أيديهم سائلين، وأغلبهم يحضرون معهم أطفالا، يعلم الله من أين يأتوا بهم، ليشحذوا عليهم، وكان هذا شيئًا تحترفه النساء. لكن غالبًا كان كل أولئك يذهبون لمكان ما مساءً، ونادرًا ما تجد أحدهم راقدًا نائمًا في الشارع. لكنني عندما مررتُ بجوار سور الترعة في هذه الساعة، وجدتُ جسدًا ملتحفا ملاءة سريرٍ مخططةً بالأبيض والأزرق، ومكوَّمًا، مطلقا شخيرًا عاليًا غريبًا. الأغرب أن الجسد يدلُّ على أنه امرأة!

لم أرَ امرأة نائمة في الشارع في مدينتي من قبل قط، تصوَّر!

مررتُ بقُربها وأنا أخطو برفق وبصوت منخفض جدًّا لحذائي على الأسفلت المتشقق، الذي لم تألُ البلدية جهدًا في نبشه كل شهر وإعادة رصفه، لكنها أحست بمروري فيما يبدو لأنها نهضتْ وأزاحت الملاءة عن رأسها وحولت وجهها إليّ:

- حاجة لله يا ولدي إن شاء الله يسعدك!

مدّت لي يدها فنظرتُ إلي وجهها لحظةً، وعلى الرغم من الضوء الخافت المنتشر فقد رأيتُ شُعيراتٍ طويلة نابتة بوضوح في ذقنها.

إن لها لحيةً! شعرت بالرعبِ، وقبضتُ يدي التي كانت ممدودة إليها بجنيه فضة:

- شا لله يسعدك!

لم أستطع أن أُقرّب يدي منها.. ارتعشت فسقط الجنيه مني على الأرض. تحولت بعيدًا عنها، وأخذتُ أجري وأنا لا أُدرك ما أفعل بالضبط. لكن ما أخافني حقًّا هو أنني سمعتُ صوتها في إثري. سمعتها بوضوح وهي تضحك!

***

عندما وصلت إلى البيت، دققتُ الباب بسرعة ولهفة. سمعت صوت خطوات تتجه صوب الباب من الداخل ثم صوت الباب يُسحب بقوة. أخيرًا ظهر لي وجهُ أخي "مظهر" على الباب.

احتضنني، وأخذ يُقبّلني، ويسألني عن حالي.صحى البيت كله على أصواتنا، وأتت أمي، التي كانت تتوضأ، لترحب بي، وكذلك إخوتي.

سألت عن أبي فقالت لي أمي على الفور:

- طلع نقلة يا ولدي ربنا يرجّعه بالسلامة!

كان أبي سائقًا على عربة نقل كبيرة، يُشارك فيها أحد أعمامي، وشخصٌ آخر:

- ربنا معاه يا رب!

دعوّت له، وأنا لا يزال قلبي يرتجف فَرَقًا. أحضرت لي أمي فطورًا.. فولًا بالسمن، وبصلًا وعيشًا مصريًّا* بائتًا:

- معلهش يا ولدي.. أصل لسه الطابونة مخبزوش، وعيشنا خلص وهخبز النهاردة إن شاء الله!

أصلًا أنا لم يكن لي شهية للأكل، وكانت مسألة العيش البائت هذه أفضل حجّة لي تُبرّر عدم رغبتي في الفطور. تناولت لقمة واحدة إرضاء للجماعة، ثم تركتهم وذهبتُ إلى غرفتي، وأنا أردُّ على كلام أمي:

- ولا يهمك يا حاجة. العيش أهو زي الفل!

أغلقت الباب عليَّ، وارتميتُ في الفِراش بكامل ثيابي بعد أن وضعت حقيبتي، التي أفرغتها أمي من الثياب المحتاجة للغسل، بجوار السرير.. حاولتُ النوم لكنني ظللت مستيقظًا رغم تعبي حتى التاسعة صباحًا.

---

* الخبز البلدي الذي تنتجه المخابز يسمي في الصعيد (مصريًّا) تميزًا له عن الخبز الصعيدي الشمسي.

وأنا أتقلّب في الفِراش قلقًا مُتوتّرًا. فقد كنتُ أشعر أن هناك شيئًا سيحدث!

***

سمعتُ أذانًا يرطب الأنحاء من حولي، ففتّحت عيني.. كان الضوء قويًّا للغاية في الغرفة، فأحسست بالنور يقضم شبكية عيني حينما فتحتهما.

كانت الغرفة خالية من حولي وبابها نصف مفتوح. نهضتُ مُتثاقلًا وخرجتُ إلىٰ الصالة، كانت شقيقتي "منة الله" تنزل السُّلم وفوق رأسها طبقٌ كبيرٌ تراصت فوقه أرغفة الخبز الساخنة الطازجة:

– صباح الخير يا منة!

ردَّت عليَّ باسمةً، وهي تطلب مساعدتي لإنزال الطبق الثقيل:

– قول مساء الخير الضهر بيأدّن يا عم.. الله يسهلّك إحنا مرزوعين فوق السطوح بنخبز!

عاونتها في وضع الطبق على الكنبة ثم تناولتِ رغيفًا مستديرًا كبيرًا وقضمته بلهفة وجوع:

– الله! أدي العيش ولا بلاش.. مش تقوليلي بتاع الطابونة البايت!"

ذهبتُ إلى الحمام، اغتسلت وتوضأت ثم ذهبت إلى غرفتي.. صلّيت الصبح الذي فاتني وبعده الظهر، ثم قررتُ الخروج من البيت، ولسبب ما تذكّرت فجأة المرأة ذات اللحية التي رأيتها، وأنا قادم في الفجر!

قرّرتُ أن أذهب لأراها مرة أخرى.. لسبب ما أثارني جدًّا رؤية كائن غريب كهذا يجمع بين صفات الذكر والأنثى في وقت واحد.. امرأة بلحية هذا شيء مثير للخيال فعلًا!

تمشّيتُ حتى وصلت إلى الشوارع القريبة من محطة القطار، وهناك عند السور وجدت تجمعًا هائلًا للناس،منهم عدد من رجال الشرطة.. كانت الضجة، والأصوات هائلة والارتباك كبيرًا لدرجة تمنعك من فهم ما الذي حدث بالضبط.. رأيت عربة إسعاف واقفة وبجوارها أعداد من الناس تحيط بها وملاءة قماشية كبيرة يدفعها بعضهم ويجذبها البعض الآخر.

لم أفهم شيئًا مما يحدث!

أخيرًا ظهر ضابط تبدو على نظراته القوة، فصاح في المواطنين المحتشدين فتفرق بعضُهم بينما قلّت الضجة الصادرة عن بعضهم الآخر:

– في إيه يا ولد عمي؟

حادثتُ شابًّا طويلًا سقيمًا يبدو طالبًا جامعيًّا مثلي كان يقف تمامًا بقرب السور، وينظر بلهفة إلى الترعة شبه الجافة خلفه:

– ده عيل أعوذ بالله لقيوه في الترعة!

– غرقان؟

سألته، وأنا أعرف الجواب جيدًا، فلا يخلو عام واحد في مدينتنا من غريق أو أكثر بسبب الكرة واللعب والعوم في الترعة وفي النيل أحيانًا:

– لا غرقان إيه؟ الترعة ناشفة سلامة النظر ده مقتول بعيد عنك!

شعرت بالرُّعب وسألته خائفًا:

– مقتول إزاي يعني؟!

ردَّ عليَّ، وهو يشير إشارة قاطعة نحو رقبته:

– مدبوح بعيد عن السامعين يا رب! حد دبحه، ورماه في الترعة ورا السور!

أصابني الاضطرابُ،وأخذتُ أغذُّ الخُطى مُبتعدًا عن مكان التجمع البشري. ناسيًا تمامًا أمر السيدة ذات اللّحية!

***

على الغداء لم يكن لأسرتي موضوع سوى شيئين اثنين:

الأول هو موضوع السوس الذي يملأ دقيق التموين الذي تسلموه هذا الشهر، والثاني هو موضوع الطفل الذي وجدوه في الترعة.

بدأنا بموضوع الخبز لكن الآخر سرعان ما طغى عليه تمامًا:

– تلاقيه بس عيل أهله عليهم تار، وحد غدر به ودبحه ورماه في الترعة!

كان ذلك رأي أختي "منة" التي انهالَ عليها الجميع تسخيفًا، وتقريعًا:

– بس يا بت يا هبلة أنتِ! التار مش بيتاخد من العيال والحريم يا ماما!

حازت أمي في الصف بجوار ابنتها لتدافع عنها، وأجابت قائلة:

– والله يا ولدي الدنيا حالها إتقلب! ما يمكن صح زي ما بتقول أختك.. ده حتى العيال الصغيرة بيخطفوهم ولو ناسهم مدفعوش الفلوس اللي عايزينها بيدبحوهم. ربنا يعافينا ويطلعنا منها على خير يا رب!

التقطت أنا طرف الخيط لأنني أحسست أن التبرير المناسب قريب جدًّا:

– هو فعلًا ممكن عيل مخطوف صح ومدفعوش فديته.. كلام معقول والله!

لكن الكلام المعقول سرعان ما تبين أنه غير معقول حينما توصلوا لمعرفة اسم الغلام القتيل بعد قليل. كان من نجع من النجوع القريبة، صغيرًا في السابعة، ابنًا لمُزارع ثري، ولم يكن مخطوفًا ولا على أهله ثأر من أي نوع.. الغريب حقًّا هو:

ما الذي أتى به إلى المدينة التي لم يأتِ إليها بمفرده من قبل قط؟!

***

اشتعل المركز نارًا عندنا بعد حادثة الطفل المذبوح. أما أنا فقد اهتممتُ بالموضوع يومًا واحدًا ثم نسيتُ كل شيء، وعدتُ أتذكّر المرأة ذات اللحية. بحثت على الإنترنت طويلًا حتى عرفت في النهاية، من بين كل العك المتداخل الذي قرأته هنا وهناك، أنها لا بد تعاني حالة خنوثة أو شيئًا من هذا القبيل.مَرَّ اليوم عاديًّا حتى موعد العشاء. تعشينا، وبعدها عرض عليَّ أخي أن نخرج لنتمشى ونجلس في أي مكان لنشم الهواء. طبعًا كنا ننتوي الذهاب إلى القهوة وهكذا لكننا لم نجرؤ على قول ذلك أمام أمي.

وبمجرد أن غادرنا البيت حتى قلتُ لأخي ضاحكًا:

– تعالى هوريك حاجة عمرك ما شوفتها!

سألني، وهو يغمز بعينه:

– هتورّيني إيه يا نمس؟

– واحدة ست.. طالع لها دقن!

ضحك عاليًا، ولم يصدق. لكننا عندما وصلنا لم نجد شيئًا غير المتسولين العاديين، ومعظمهم من النساء، أما المرأة ذات اللّحية فلا أثر لها هناك!

***

في الفجر حدث هذا..

في الثالثة فجرًا تقريبًا. سمعت صراخًا خافتًا يتردد في أذني!

فتحت عيني المُثقلتين بالنعاس وتلفّت حولي.. كانت غرفتي مظلمة وساكنة تمامًا. قلت لنفسي:

– باينه كابوس يا واد.. إتخمد نام!

وفعلًا أغمضت عيني ثانية. لكنني سرعان ما فتحتهما على صوت الصرخة القوية يتردّد في أذني مرة أخرى:

– مابدهاش بقى!

أزحت الغطاء عني، وخرجت من الغرفة أتحسَّسُ طريقي في الظلام خارجًا.. لم أجد أحدًا في الخارج مُطلقًا.. اتجهت ناحية باب البيت،

وفتحته فتحة صغيرة وأخرجتُ منها وجهي لأطل على الشارع الأسود الساكن في الخارج. لا شيء، لحظة. وفجأة صرخة مروعة هائلة تتردد في جو الصباح المبكر الخامد مصحوبة ببكاء. بكاء طفل مُتوسِّلٍ غارق في الدموع!

ارتجفتُ..ارتجفتُ بعنف،وخطر ببالي. نعم. إنه صوت الطفل الذي وجدوه ميتًا بالأمس. لا بد أنه عِفريته خرج يستنجد بالناس!

شعرت ببرودة شديدة، وشيء يعتصر صدري بقوة. أغلقت الباب، ودخلت البيت وحسبت الأمر انتهى!

لكن لا، إنه لم ينتهِ بعد.. ففي اليومين التاليين صرت أسمع صوت الصرخات المفزوعة عند الفجر. بل صرت أصحو عليها حتى بدأت أعصابي تتحطم تمامًا، وزاد من رعبي أن لا أحد غيري كان يسمعها أو يصدق بوجودها!

لكن، وفي صبيحة اليوم الثالث عثروا على الطفل الثاني مذبوحًا في نفس المكان من الترعة الجافة!

***

انقلبت البلد رأسًا على عقب بعد اكتشاف الجريمة الثانية. جلّل الشوارع بالفزع والرعب، وتناثرت الشائعات والتفسيرات من كل اتجاه. البعض كان يظن أنها عصابة تخطف الأطفال وتقتلهم، ولكن لأيٍّ غرض؟!

كلا الطفلين لم يتم خطفهما، ولا طُلب فدية عليهما، ليس على عائلتيهما ثأر، ولا تم انتزاع أيٍّ من أعضائهما ليقال إنها عصابة للتجارة في الأعضاء.. فلأيِّ غرضٍ قُتلا وذُبحا إذن؟!

لم يتبقَّ سوى تفسير واحد صدقته الأغلبية العظمي:

– ده مارد بسم الله الرحمن الرحيم بيقتل العيال!

أصابني سهم الله حين سمعت هذا الكلام، لكنني لم أصدقه. قبل أن آوي إلى فِراشي، في الليلة الثالثة كنت قد قررتُ أمرًا وعزمتُ عليه!

***

في الليلة الثالثة بقيتُ مُستيقظًا أُدخن خفية في غرفتي. أغلقت بابي بالمفتاح متظاهرًا بأنني نائم ولا أريد أن يزعجني أحدٌ من أولاد أخي المشاكسين العابثين، وانغمست في التدخين والعبث بهاتفي محاولًا البقاء مُستيقظًا حتى الفجر.

ظننتُ أنني سأنجح في ذلك لكن بعد مرور ساعتين تقريبًا بدأت أشعر بالنعاس يُداهمني، وبألمٍ ورفة في عيني لا أعرف لهما سببًا. انزلقت لأسفل ووضعتُ رأسي على الوسادة محاولًا البقاء رغم ذلك مُستيقظًا مُستعينًا على ذلك بوضع سماعات الهاتف في أذني وتشغيل أغنية مُحبَّبة لي بصوت مرتفع. لكن تلك الحيل كلها لم تنجح وغرقت في نوم عميق والهاتف مفتوح على مشغل الأغاني بجواري دون أن يوقظني الصوت المرتفع المتدافع في أذني. لكنني – وبتدبير بيولوجي

حكيم من ساعتي الطبيعية - فتحت عيني تمامًا في الساعة الثالثة صباحًا. فقط لأسمع الصرخة الهائلة تنبعث من جديد من مكان بدا لي شديد القُرب. والتي كانت أكثر ارتفاعا وإثارة للذعر هذه المرة!

هرولت ناحية المشجب التقطت بنطالًا وقميصًا وارتديتهما على عجل.. خرجت على أطراف أصابعي، ومررتُ عبر الصالة المظلمة فقط لأجد أمي هناك في الركن تتوضأ وبيدها سطلٌ كبير من الماء الساخن:

- كفا الله الشر. رايح فين يا ولدي دلوقتي!

أدرت عقلي الغافي سريعًا سريعًا حتى عثرت على الحل السليم:

- رايح أصلي الفجر في الفجر يا أما!

- أيوه بس مش بعادة يعني!

لم تكن أمي تسأل لذلك لم أتوقف للرد عليها،وسمعتها وأنا أسحب الباب الثقيل وأخرج إلى الشارع تدعو لي قائلة بخشوع وتضرُّعٍ:

- روح ربنا يفتحها في وشك يا ولدي ويهديك ويسعدك يا رب.

بعفوية أطلقت أمي الدعوة، ولكنها لم تكن تعرف مدى حاجتي إليها في تلك اللحظة!

الشوارع المظلمة،الشوارع الساكنة، الشوارع الخاوية التي جعلت المسافة تبدو أقصر كثيرًا وأسهل في قطعها من ساعات النهار المتقدمة

المزدحمة المليئة بالناس والعربات والحيوانات وكل ما يسير على اثنين أو يمشي على أربع.

كانت الشوارع ترقد في دعة منتظرة الضياء، وأنا أُسرع نحو السور المحيط بالترعة: ما الذي كنت أفكر فيه وأنا أفعل شيئًا جنونيًّا كهذا؟!

لا تسألني.. فلا علم لي بذلك!

فقط حينما صرتُ قريبًا بما يكفي رأيت الملاءة المخططة، ملاءة السرير القديمة، مطوية عند السور وموضوعة على الأرض.

هرولت نحوها مسرعًا محاولًا ألا تصدر عن قدمي أية أصوات لافتة للنظر أو مسموعة وجدت زجاجة ماء قديمة مفتوحة وحولها ماء مسكوب على الأرض وقطعة خبز فينو جافة يبدو أنها كانت محشوة بجبن أو طعام أبيض اللون وإيشاربًا حريميًّا مضلعًا باهتًا صغيرًا.

تلك حاجاتها فأين ذهبت هي؟!

تلفّت حولي بقلق. كانت المنطقة بأكملها خالية تمامًا. فجأة سمعت صوتًا من مكان قريب. صوت شيء يغرغر. يغرغر مختنقًا فأسرعت أدور حول السور حتى وصلت إلى المنطقة التي ينتهي عندها وتبدأ أكوام القمامة العظيمة التي اعتاد المارون قضاء حاجاتهم فوقها كثيرًا. تلفت حولي جيدًا حتى وجدت ما يشبه رأسًا منحنيًا. اعتقدت أنها

تقضي حاجتها وأصابني الخجل من نفسي لكنني عندما التفت جانبا وجدتها بنفسها جالسة بقربي!

شعرت بالذعر الشديد خاصة وأنا قد تصورت أنها تحت. فكيف جاءت من خلفي دون أن أشعر بها!

جلست على الأرض وأمسكت الملاءة والتفت بها ثم نظرتْ إليّ طويلًا. تخيلت أنها ستمد يدها إليّ طالبة صدقةً، فعبثت في جيبي حتى وجدت نقودًا معدنية وأخرجت بعضًا منها في قبضة يدي:

– روح يا ولدي.. الله يسهلّك!

فجأة سمعت صرخة هائلة..صرخة من مكان قريبٍ جداً.. من خلف السور تمامًا!

تحرّكت بسرعة لكنها مدّت يدها تقبض على ساقي أسرع:

– روح يا ولدي.. خليك في حالك!

أزحت يدها بقوة لكنها تشبثت بي بقوة أكبر كانت يدها فائقة القسوة والصلابة:

– امشي يا ولدي من هنا!

حاولت مدافعتها لكنها كانت أقوى مني.. أقوى مني بمراحل:

– في إيه اللي بيحصل هنا؟!

– ملكش دعوة يا ولد الناس.. أمك عايزاك يا ولدي!

– إبعدي عني!

دفعتها فجأة فلم تجد فرصة لتقاومني. قفزت قفزًا حتى وصلت إلى أكوام القمامة في الخلفية.

هناك رأيتُ رأسًا صغيرًا مرتاحًا على كوم قمامة متصلًا بجسد صغير ممدد بلا حراك، ومما بين الرأس والجسد ينساب سائل كثيف ما لبث أن تبين لي لونه الحقيقي والشمس تتقدم في الأفق. إنه دم!

***

لم أفعل شيئًا مما تخيلته. فلم أجرِ، ولم أصرخْ، ولم أقبض عليها، ولا أي شيء مما كان يجب أن أفعله. فقد أصابني رُعبٌ لم أعرفه من قبل.. رعب جعل ركبتي تخبطان كلٌّ في بالأخرى وأسناني تصطك وجسدي كله يرتعش.

أمرتني بالرجوع إلي بيتنا ففعلت، ولا أعرف كيف حدث ذلك لكنني مشيتُ بخطى ثابتة حتى وصلت إلى بيتنا لأجد أمي قلقة عليَّ جدًّا.

ذهبت إلى فراشي وسحبت الغطاء على رأسي، ثم نمتُ حتى العصر بدون أن يوقظني أحد!

صحوتُ أخيرًا غارقًا في العرق وإحساس بالكآبة والموات يملؤني.
لعل المنظر الذي رأيته فجرًا هو سبب همي ورعبي. منظر أيُّ منظر؟!

لقد كان حلمًا مزعجًا فقط، ولقد أكدت لي ساعات النهار التالية إنه كان مجرد حلم ليس إلا!

فعندما خرجتُ من غرفتي وجدت البيت غارقًا في الصمت التام، ويبدو حتى خاليًا من الحياة.. لكن سرعان ما وجدت أمي وأختي جالستين في غرفة الخبيز فوق السطح تنظفان دجاجًا وبطًّا كثيرًا. ألقيت عليهن تحية المساء وسألتهن لماذا تركوني نائمًا حتى الساعة:

– لقيناك تعبان فصعبت علينا قلنا نسيبك تنام براحتك.

– جميل.. لكن ما أخبار البلد يا ترى؟!

– لا شيء؟!

– لا شيء!

كل الأمور في نِصابها ولا حوادث قتل جديدة. لكنني رأيته بعيني مذبوحًا وممددًا فوق كوم القمامة؟!

كنت أحلم إذن. لا تتعب نفسك بالبحث عن تفسيرات!

***

ونحن جالسون للعشاء حدث أمر غريب.. دقّ شخص ما بابنا دون انتظار، وحينما قامت أمي بفتح الباب وجدت سيدة عجوزًا ترتدي ثيابًا بالية وتطلب صدقة وإحسانًا!

كان هذا عجيبًا، فالمتسولون نادرًا ما يدقُّون الأبواب إلا في شهر رمضان والأعياد. ذهبت أمي لتحضر لها رغيفًا، وأعطاها أخي ثلاثة جنيهات فضية لتعطي المتسولة إيَّاها. سمعت صوتها تدعو لأمي، ولنا حين ناولتها هذه الأشياء. تجمَّد الدم في عروقي فجأة، فقد ميزت بوضوح صوت المتسولة ذات اللحية!

نهضتُ من مكاني بسرعة وذهبت إلى حيث تقف أمي عند الباب المفتوح نصف فتحة. أبعدت أمي برفق جانبًا وتصدرت للمرأة وأريتها نفسي بوضوح، ودون أن أخطط لذلك وجدت نفسي أصرخ فيها بغضب:

– غوري يا ولية من هنا!

همست لي أمي بوجه مذهول:

– ليه بس كده يا ولدي؟!

– ملكيش دعوة يا أما.. دي قتالة قتلة ومجنونة!

لم تجادل المتسولة، أخذت الرغيف والنقود واستدارت مبتعدة بصمت!

ما الذي دفعني لفعل ذلك؟!

لا أدري حقًّا.. لكنه كان أسوأ شيء فعلته في حياتي!

***

في تلك الليلة استيقظت مرة أخرى على صوت الصراخ المُروِّع.
لم أتحكم في أعصابي تلك المرة سأذهب، وأمسكها وأقتلها.

لا لا سأُسلمها للشرطة ليعدموها!

هرولت مرتديًا ثيابي.. لم يرَني أحد تلك المرة فالجميع نائمون.
فتحت الباب، وخرجت عازمًا على ألا أرجع حتى أفهم ماذا يحدث هنا بالضبط!

عند السور كان الظلام منتشرًا ومعه شيء ثقيل جاثم على أنفاس المدينة النائمة. شر. هناك شرٌّ كبير طليق هنا!

بحثت في المنطقة حولي فلم أجد شيئًا.. تردّدت الصرخة مرة أخرى لكنها بدت مختلفة تلك المرة كانت هذه صرخة أنثوية مبحوحة غامضة، ومختلفة تمامًا عن نوعية الصرخات التي تعودت على سماعها.

دورت حول السور مخفضًا رأسي ثم أخذتُ أتلصّص من موضع آمن هناك..كانت أكوام القمامة مكوّمة كما هي، والظلام يُخفي أغلب معالمها.. فجأة وجدت شيئًا يتحرك في المياه القليلة الملوثة الراكدة في الترعة..

هل هناك أحد مختلٌ عقليًا يسبح في الماء في تلك الساعة؟!

لا.. كان شيئًا طويلًا يتحرك شاقًا المياه كسكين حامية تشقُّ رغيف خبز.. سمعت شقشقة المياه، وهي تنـــزاح مُفسحة طريقًا لذلك الوجود ليخرج. خرج على الضفة ثم تسلل وسط كوم قمامة هائل. حتى الآن لم أُميِّز فيه سوى عينين براقتين تلمعان كقمر من نار.

ارتجفت لكنني بقيت مكاني بقوة الجبن والعجز عن الحركة تلك المرة وليس بقوة الشجاعة!

انسابُ وسط القمامة حتى وصل إلى قدمي امرأة جالسة هناك. المتسولة ذات اللحية!

كانت جالسة القرفصاء فوق القمامة. ماذا تفعل هناك؟!

لا أعرف.

تسلّل الشيء الذي كان يسبح في الماء حتى أصبح فجأة خارج الظلام تمامًا، ظهرت لي هيئة كهيئة الإنسان لكن بعينين متقدتين تومضان في الظلام. اقترب منها فلم تفزع. بقيتْ جالسة تنظر إليه، وظهرها ناحيتي.

سحب نفسه حتى كاد يجلس تحت قدميها تمامًا، ثم مدَّ يدًا عادية طويلة الأظفار ورأيته يجذب شيئًا في وجهها. جذب جذبة قوية فرأيتها ترتجف. جذب جذبة أخرى ثم توقف:

- أنتِ لا تخافين منا؟!

هسهس قائلًا ذلك لكنها لم ترد:

- ستكونين جميلة حين يأتي موعدك!

خرج صوتها الآن للمرة الأولى:

- متى؟!

قالتها بلهجة عادية فسمعته يضحك،ويضمُّ يده التي تمدّدت فجأة:

- اثنان، وتكونين الثالثة، ثلاثة وتكونين الرابعة. أربعة وتكونين الخامسة. اختاري.

سمعتها تبكي، تبكي بكاء حقيقيا، فتمزقت نياط قلبي.

ما الذي يحدث هنا بالضبط؟!

- التالتة.

الآن فهمت.. فهمت كل شيء، إنه سيقتلها. سيذبحها!

لمعت يده فكدت أصرخ. كتمتُ فمي بيدي بينما يده تمتد إلى عنقها. مجرد كسر ثانية ووجدتها تهوي ساقطة على كوم القمامة!

كتمت صرخة في أعماقي، وتراجعت وأنا لا أزال منحنيًا مخفيًا رأسي. تراجعت بظهري وأنا أنظر أمامي غير عالم بما يختفي خلفي. تراجعت بظهري وتراجعت حتى ارتطمتُ بشيء قوي خلفي. سقطت

على ظهري لكنني اعتدلتُ بسرعة. نهضت أخيرًا متلصِّصًا مرعوبًا فوجدت أن هذا الشيء قد اختفى. ذهبَ، ذهبَ الحمد لله!

نظرتُ خلفي فوجدت ملاءة السرير المخططة بالأزرق والأبيض. الملاءة الرثة الممزقة كما هي لكنها الآن ملطخة بالدم. ابتعدت عنها وأنا أشعر بذعر هائل، ثم عدت إليها مدفوعًا برغبة في معرفة ما حدث لها. مددتُ يدًا مرتعشةً ورفعت طرف الملاءة. كان الجسد ساكنًا تحت الملاءة. اللحية النابتة مخضبة بدم والثوب البالي كذلك. وبينهما رقبة مقطوعة تمامًا وكادت تنفصل عن الجسد. أخرسني جُبني فلم أجد حتى قدرة على الصياح والصراخ. ألقيت طرف الملاءة من يدي. تعالى صوت قطار يمرق في المحطة الآن. سمعتُ صوت شيء يزحف متجهًا نحوي. نظرتُ فوجدت الشيء المُجلّل بالظلام ذي العينين البراقتين يزحف على الأرض كعلقة متجهًا نحوي. أخذ يردد كصلاة شريرة:

- ثلاثة وتكون الرابع.. ستكون الرابع!

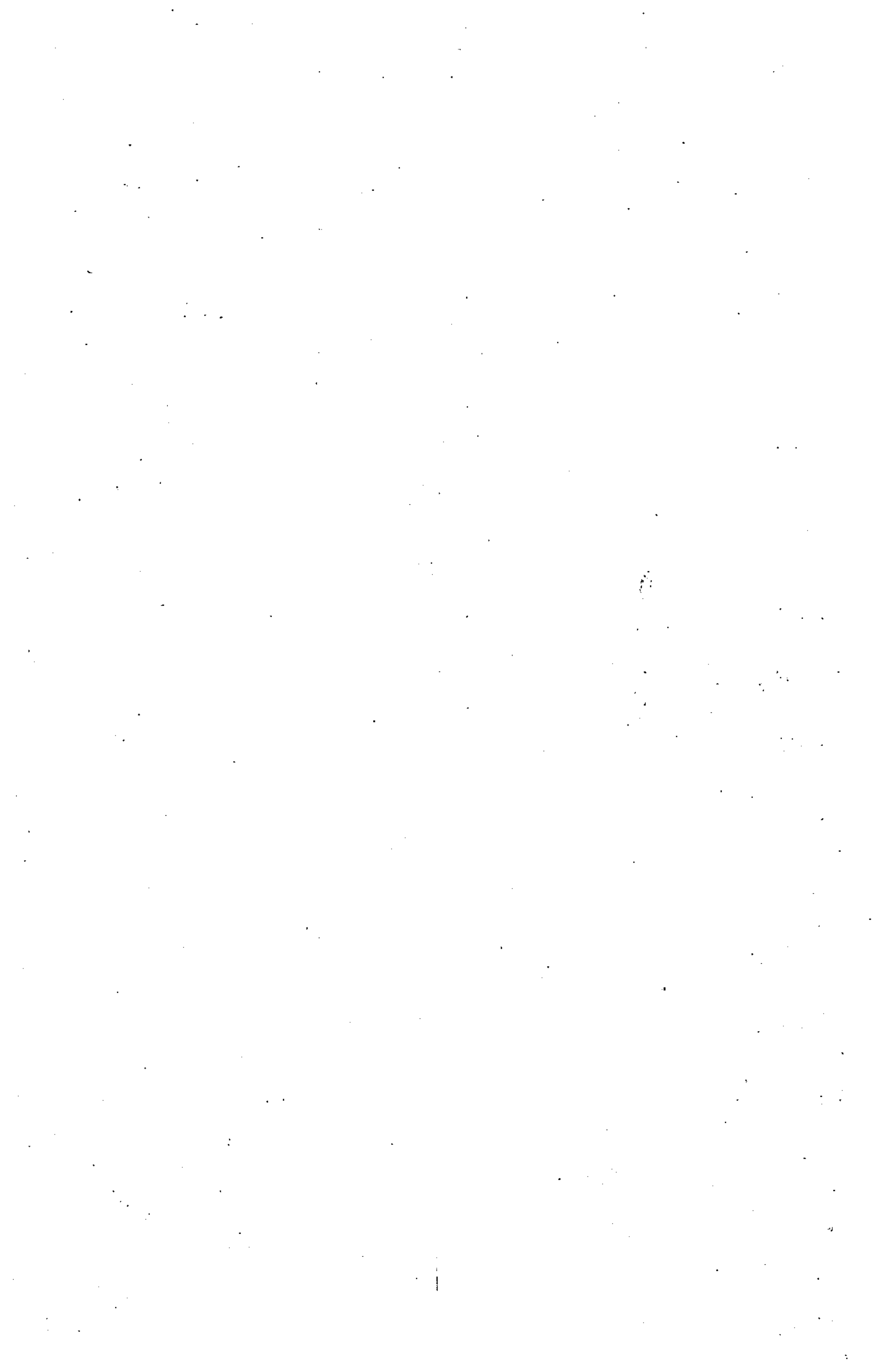
صرخت الآن، وكان يجب أن أصرخ. حملتني قدماي المذعورتان فلم أدري إن كنت أجري للأمام أو للخلف.. جريتُ بسرعة خارقة وأنا لا أستطيع تمييز معالم الشارع حولي. كل شيء تحول لخطٍّ متصل من الضباب الملون فلم أعرف إلى أين أتجه بالضبط. فقط حين تعالى صراخ القطار في أذني عرفت أنني أتجه إلى الأمام وليس إلى الخلف

كما كان يجب أن أفعل. تعالى صراخ القطار في أذني. تأكدت أنه يتزلق فوق القضبان بأقصى سرعته، وأنه سيدهسُني خلال لحظة.

توقفت أنفاسي تمامًا، وشعرت بأن ضلوعي قد تورمت وتحطمت.. التهب صدري، وسرت برودة في جوفي.. زعق القطار مُنذرًا إيايَّ مُطلقًا الشَّرر للمرة الأخيرة. لم أشعر إلا وأنا أقذف بنفسي على الناحية الأخرى من الشريط الحديدي لأرتطم بالقضبان السميكة، وأفقد كل إحساس لي بما يدور حولي. لا أعرف ما إذا كنت قد نجوت أو دهسني القطار. لكنني أُفضِّل الأخيرة عن أن أقع بين يدي الشيء الزاحف الخارج من الترعة الجافة!

منال عبد الحميد

انـعـكـاس



شارع مُظلم، ممر ضيق ومطر غزير، فقط ضوء القمر هو ما ينير طريقي، وقطرات المطر التي تلمس عروقي النابضة وصوت الفراغ.

ركضت بأقصى سرعة قد يهرب بها أحد يومًا.

ركضتُ في ذلك الممر الطويل، وكلما اقتربت من النهاية زادت المسافةُ أكثر.

تلاحقت أنفاسي، وكأنني في سباق مع نفسي.

نظرت خلفي، لأراهم يركضون نحوي.

صرخت، وبكيتُ وحاولتُ الهرب لكن أكاد أجزم أنه لا سبيل للهرب من هؤلاء أبدًا.

بدأتُ أنفاسي في التباطؤ، فأنا لم أعد أحتمل ذاك الألم بقلبي دقيقة أخرى.

أغمضت عينيَّ فلربما أنا في حُلم أو كابوس ليلي رَهيب ولكن لا جدوى من ذلك حتى.

نعم، إنهم يقتربون، وقد أُهكت قواي في الركض، رُبما عليَّ الاستسلام الآن.

رُبما.. رُبما..

لا أعلم كم مَرَّ من الوقت وأنا أتامل تلك الوجوه التي تنظر نحوي في خَوف شديد، فأنا لا أذكر أنه كان لي أنياب طويلة أو حتى عينان سوداوان! فلِمَ ينظرون إليّ هكذا؟

حاولت النُّطق، ولكن هُناك شيء ما يعوق حركتي ولساني، أنا حتى لا أذكر من أكون.

دقَّقتُ النظر، ما هذا؟!

شعرت بقَلبي يسقط في قدميَّ من هَول المُفاجأة، فتلك الوجوه كانت مَنحوتة بشكل بارع حتى أنني ظننت أنهم بشرٌ ينظرون إليّ.

أأه يا رأسي، مَنْ أنا ومن هؤلاء؟

هل أنا حقًّا أسمع تلك الأنفاس، أنفاس بطيئة ساخنة وهادئة نظرت حولي وأكاد أجزم أن أحد تلك التماثيل قد تحرَّك للتو من مكانه!

بدأت أشعر بأن عضلاتيَ قد تحررت من سكونها المُرعب.. فرفعت رأسي للأعلى لأرى بُقعه دماء سوداء تحتل ذاك السقف الخشبي القديم.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة بالغة، ونظرت إلى يميني لأجد بابًا خشبيًّا كبيرًا، وقِبضًا حديديًّا صدئًا، وأمامي تلك التماثيل الساكنة الحية!

باغتني ذاك الخيال من يساري، ففُجعت، وشعرت بأن قَلبي قد تفتت إلى قِطع صغيرة تَصلح لتكون طعامًا للذئاب.

– وأخيرًا يا إيزابيل.

لقد كان ذاك الصوت مألوفًا لي، ولكنني لم أتمكن من معرفة صاحبه.

– أينَ أنا، ومَن أنت؟

– أتريدين حقًّا معرفة من أنا؟، إن في ذلك مَوتك يا صغيريّ!.

– اظهر أمامي حتى أراك.

لم أُكمل جُملتي الأخيرة، حتى ظهر ذاك الجسد أمامي، شاب في مُقتبل العُمر أو هكذا خَمنت أنا، له عينان خضراوان واسعتان وشعر بنُي مُجعَّد، يرتدي بِزة سوداء وخاتمًا أسود يتخللُه خطوط حمراء في خنصره، ولكن أكثر ما يُميز ذاك الشاب هي تلك السكين الموضوعة في مُنتصف صدره.

أشعر بشيء غريب جدًّا، برغبة في الاقتراب منه أكثر، هُناك رائحة نافذة تتغلغل بداخل عُروقي وأوردتي وخلاياي، لم يترك لي الفرصة للذهاب بعيدًا بأحلامي:

- يا قاتلة.

- عمَّ تتحدث؟!

- أنتِ، أنتِ قاتلتي، سَرقتِ قَلبي أولًا، ومن ثَم حلَّ السواد عَلي دُنياي، قَتلتني، نعم قَتلتني، وحان الوقت من أجل أن تكوني مكاني.

لم أعد أفهم شيئًا أو أذكر شيئًا، كُل ما يُهمني هو الفرار من هُنا ولكني أعتقد بأنني سأشتاق إلى تلك الرائحة التي لا أعرف ماهيتها إلى الآن!

- أنا لم أفعل شيئًا، ولا أعلم عمَّ تتحدث، ولا أعلم أين أنا.

- أنتِ هنا، بداخلك، أتستشعرين خطاياكِ، آثامك ومخاوفك، كُل شيء هُنا، تلك التماثيل هي نحن، يا قاتلة يا قاتلة.

وقبل أن أنطق كان ذاك الخِنجر قد اخترق جسدي الهزيل، لم أصرخ، لم أتألم، لم أشعر بأي شيء، فقد أغمضتُ عيني وتركت نفسي لذاك الشعور الرائع.

***

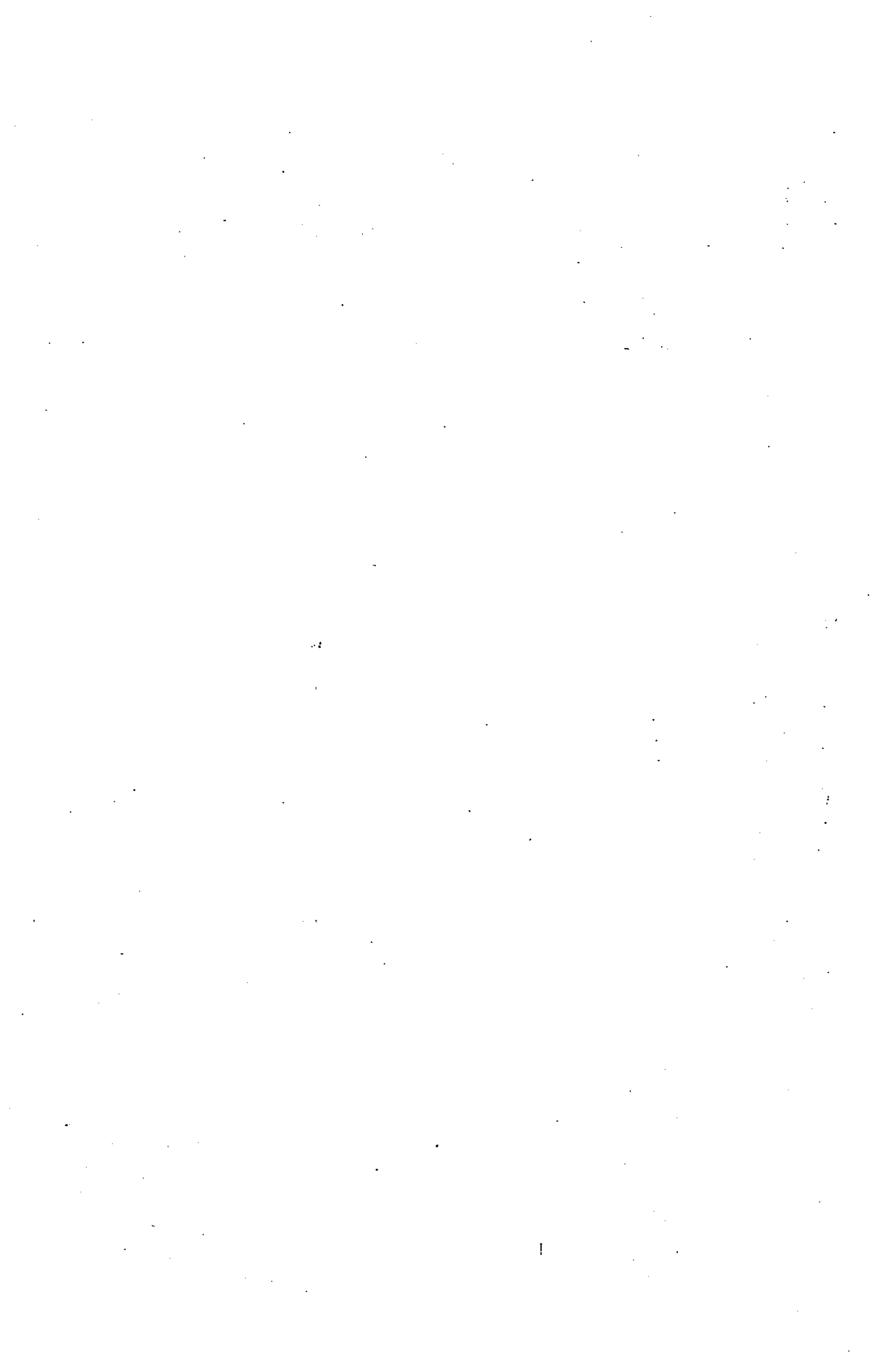
شُعاع من الشمس يُضيء غُرفتي، لقد استيقظتُ.

لقد كان حُلمًا إذن، كُل ذاك الوقت كان حُلمًا!

يا لي من غَبية، هَبطت من فوق سريري، ووضعت يدي لأتناول نظارتي من "الكومود"، واصطدمتْ يدي بشيءٍ صغير، تفحَّصت ذاك الشيء:

أوه، نعم، خاتم أسود يتخلله خطوط حمراء، لا أذكر من أين أتى، ولكنه جميل فعلًا.

مي مجدي



جريمةٌ سابِقةُ التَّجهيز



الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلًا، ست ساعات كاملة، وهو لم يغادر مقعده هذا. درس كل ورقة أمامه مئات المرات، عقله لم يتوقف عن التفكير ثانيةً. عدة أكواب من الشاي شربها وعلبة سجائر كاملة نفثها خلال الساعات المنصرمة، إنها ليست قضية واحدة،بل قضيتين.. قضية زميله الضابط عاطف سالم آخر قتيل مات بيد ذاك السفاح المتخصص في قتل رجال الشرطة، لا يمرّ شهران حتى يموت ضابط بيد ذلك السفاح. حتى الآن ستة من الضباط ماتوا بيد ذلك الشخص الزئبقي، الذي لم يوجد أيُّ دليل يقودهم إليه.

ضرب سطح المكتب بيده وهو يتأمل أوراق القضية الثانية، كان الغضب مرتسمًا على ملامح الضابط حسام العياط وهو يشعل سيجارة، فهناك شيء يقلقه بحق. آنذاك سمع دقات على باب الغرفة، فأعطى الإذن بالدخول، دخل عسكري وأدَّى له التحية وهو يقول:

– إن هناك شخصًا بالخارج يريد مقابلته لأمر مهمٍّ.

لم يكن حَسام في حالة مزاجية ملائمة، لكن العمل عمل. فقال للعسكري أن يدخله.

بعد هنيهة دخل ذلك الشخص، كان نحيفًا، ويبدو الشحوب على وجهه بصورة كبيرة وكأنه لم يأكل منذ عدة أيام، وتحت عينيه ارتسمت خطوط الإرهاق واضحة وكأنه لم ينم شهورًا.

وقف أمام حسام وبدا أنه يبتلع ريقه بصعوبة وهو يتأمل حسام، وعيناه مسلطتان على وجهه وكأنه يقيس أهميته، وبدا يرتعش لحظات.

قال حسام وهو يقترب منه ويضع يده على كتفه:

– اهدأ، ما الأمر؟.. سيجارة!

قال ذلك الشخص في خُفوتٍ:

– لا أدخن.

ابتسم حسام وهو يشير لمقعد ليجلس عليه هذا الشخص، فجلس وهو يقول:

– أنا عوني. عوني البكري. أستاذ كيمياء في جامعة القاهرة.

– والمطلوب؟

نظر عوني حوله في توتر وهو يقول:

- لقد رأيتها.. رأيت تلك الجريمة التي حدثت منذ أسبوع في شارع 6.

برقت عينا حسام، وهو ينظر للملف الموضوع على مكتبه، اقتربَ من عوني وهو يقول بحسم:

- احكِ لي كل ما رأيته وبالتفصيل، لا أريد أن يفوتك أي شيء.. أولًا. صحيح الجريمة حدثت منذ أسبوع، فلماذا جئتَ اليوم ؟

بلع عوني لعابه وهو يقول:

- الخوف.. القتيلة تأتي لي كل يوم، والخوف أن يعرف أحد أنني كنتُ شاهدًا على ما حدث.

- طبيعي تأتي لك في أحلامك.. كوابيس. خوفك طبيعي سأعتبر إجابتك جيدة. الآن قل كل شيء وبمنتهى الدقة.

بدا عوني سارحًا في عالم آخر، وحسام يقترب منه ويضع يده على كتفه، انتبه عوني فابتسم ابتسامة شاحبة وهو يقول:

- منذ أسبوع كنتُ في شقتي، كان الوقت بعد منتصف الليل، إنني أعيش وحدي، ذهبت للمطبخ لأعد كوبًا من الشاي، الجو كان شديد الحرارة، فتحت شباك المطبخ، وعندما استدرت رأيته، كان يمسك رقبتها بين يديه، لم أره حقيقة بل رأيته ظِلّه، بل رأيت ظِلّين،

كانا ظلين مُتشابكين، هو، وهي، كان من الواضح أنه يقتلها، فقد شاهدت يده الممسكة بالسكين، وهي تهبط عليها من أعلى، أغلقت نور المطبخ وتابعت الموقف، كنتُ خائفًا أن يراني. وقفت متسمرًّا في مكانه، شاهدت عنفه وهو يفصل رقبتها ويرفعها أمامه قبل أن يدفعها بقدمه وكأنه يركل كرة قدم بعيدًا، مؤكد أنت تعذرني. كنت خائفًا. وما زلتُ. من يومها وهي تأتي لي.

ربّت حسام على كتف عوني وهو يقول:

– مُؤكّد أعذرك. المهم أنت تعلم أن يومها تمت جريمتان، وليس جريمة واحدة. جارتك أظن أن اسمها..

– هدى عبد الفتاح.

– جميل. أنت تحفظ اسمها جيدًا.

– أنا جار للقتيلين.. منذ عشر سنوات.

– إذن تعرف الرائد عاطف سالم.

– كان شخصًا رائعًا.. رحمه الله.

اتسعت عينا حسام وهو يقترب من عوني قائلًا:

– أظن أنك رأيت مقتل الرائد عاطف أيضًا.

– كلاّ. لم أرَ شيئًا

– أتظن أن القاتل شخص واحد أم شخصان؟

– لا أعرف.. إنني جئت لأقول كل ما لديَّ لأستطيع النوم. إنني لم أنم تقريبًا منذ أسبوع. أشعر أن في أي لحظة قد يحدث لي شيء.

– اطمئنّ. سيكون كل شيء بخير،والآن هل تستطيع أن تُعيد على مسامعي الأمر مرة أخرى.

كان من الجليّ أن حسام يريد أن يتأكد من كل حرف قاله عوني، وإذ كان يخفي شيئًا أم لا. ولكن عوني أعاد القصة بنفس العبارات تقريبًا.

الساعة تخطت الثانية صباحًا تقريبًا.

وقف وقتها حسام قاطعًا حديث عوني وهو يقول:

– هيّا..يجب أن أعاين شقتك وأعرف من أين رأيت كل ما حَدَثَ. هيًا.

***

راح عوني يراقب الطريق بعينين متسعتين، وكأنه يراه لأول مرة منذ سنين.

وبدا شاردًا حتى وصول السيارة بهما إلى باب العمارة. نظر لحسام لحظاتٍ قبل أن يهبط من السيارة ويتحرَّك تجاه البوابة وخلفه حسام.

قال حسام بهدوء:

– أين البواب؟.. لا أثر له

ابتسم عوني وهو يغمز بعينه ويشير إلى شقة في الدور الأول قائلًا:

– شقة مدام فوفو الراقصة حفلاتها لا تنتهي منذ سنوات، ودومًا البواب في هذا الوقت يكون عندها.

هزّ حسام رأسه وهو يتبع عوني.

– المصعد في الغالب مُعطّل.

وضغط عوني على زر المصعد عدة مرات فلم يحدث شيء فقال:

– معطل! ألم أقل لك؟

– هيا سنصعد على السلالم. إنها ثلاثة أدوار.

وقف عوني أما باب شقة وراح يفتش في جيوبه على مفتاحها وهو يقول:

– الدور به أربع شقق.. أين المفاتيح؟ دومًا أنساها. لا يهم هناك نسخة أخرى أخفيها في صندوق عداد الكهرباء.

مَدَّ عوني يده وراح يتحسس فتحة صندوق عداد الكهرباء وابتسم وهو يفتح مفتاحًا صغيرًا وهو يقول في هدوء:

– ما زال موجودًا!

فتح باب الشقة، وهو يدعو حسام للدخول، الشقة غارقة في الظلام، وهناك رائحة خانقة مكتومة تنبعث من الداخل. سعل حسام بشدة، فقال عوني:

- عذرًا كثيرًا ما أستخدمها كمغمل.. فالرائحة تكون نفاذة، وخانقة.

حاول عوني إضاءة النور، لكن الشقة ظلت سابحة في الظلام.

- التيار الكهربائي مقطوع!

فقال حسام ببساطة:

- لا يهم سألقي نظرة صغيرة على المطبخ ونغادر معًا.

قال عوني:

- من هنا.

تحركا، وقف حسام داخل المطبخ وتطلّع للشباك الذي قال عوني إنه شاهد الجريمة تحدث من خلاله. لحظات قليلة لمعت فيها عينا حسام وهو ينظر للشباك قبل أن يقول بصوتٍ به رنة حسم:

- سنعود للمكتب لنكمل المحضر وشهادتك. هيًا.

***

راح عوني يراقب الطريق وأعمدة الإنارة، والمارة القليلين الذين يراهم من وقت لآخر في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

لم يكن يشعر بنفسه والطريق تقطعه السيارة بسرعة كبيرة لحدٍّ ما.

لماذا شعر أن الطريق أطول هذه المرة؟ التفت ناحية حسام الذي كان يقود وقد أشعل سيجارة وراح ينفثها في الجو، وعاد عوني لمراقبة الطريق وكأنه لم يشعر بشيء.

وقفت السيارة بغتة، تطلّع عوني لحسام الذي كان يرمي سيجارته في تلك اللحظة وهو يقول بحزم:

– انزل.

تطلع عوني للمكان الذي وقفت به السيارة واختلج فمه وصمت وحسام يقول:

– تحرك أمامي. هيّا.

في تلك اللحظة كانا يدخلان إلى داخل المقابر، وكان حسام يدفع عوني في ظهره بعنف ليتحرك، بينما يمتثل عوني في بساطة وكأن شيئًا لا يتم.

وقف حسام أخيرا أمام عوني ينظر إليه في ظل ضوء كشاف هاتفه المحمول:

- لقد رأيت كل شيء حقًا. وليس ظل القاتل. بل رأيت القاتل نفسه، شباك المطبخ لديك يسمح لك برؤية الجريمة كاملة،وليس مجرد ظلال تتشاجر.

ابتسم عوني ابتسامة شاحبة:

- أتظن ذلك؟

- مؤكد أنت رأيت القاتل وعرفته. لماذا جئتَ لي. لماذا؟

- لماذا قتلتها؟

أطلق حسام ضحكة عالية:

- حظها العاثر وضعها في طريقي، كنتُ قد انتهيت من قتل صديقي الرائد الجميل عاطف سالم وأغادر، وأنا أقفل باب الشقة خلفي وجدها في ظهري، رأت جثة عاطف في الصالة ملقاة والدماء تنزف منه، أتظن أنني قد أتركها في هذه اللحظة. كان يجب قتلها هي أيضًا.

ارتفع نباح كلاب من بعيد، ارتجف جسد حسام لثوانٍ مع ارتفاع صوت النباح. بينما قال عوني ببساطة:

- قاتل، وتخاف الكلاب!

- المدهش أنك لستَ خائفًا؟ وهذا مثير! ألا ترى أن مجيئك معي هنا يعني نهايتك؟

ابتسم عوني، وهو يقول بصوت به فحيح:

- ليس بالضرورة؟

سحب حسام مُديةً من جيبه واقترب بسرعة خاطفة من عوني وغرس المدية لآخرها في قلبه. لم تغادر الابتسامة وجه عوني والمُدية تشق طريقها داخل جسده. سحب حسام المُدية وابتعد خطوة للوراء وعيناه مندهشتان بشدة، فقد كان عوني واقفًا ما يزال والابتسامة لا تفارق شفتيه. أخرج حسام مسدسه وأطلق ثلاث طلقات تجاه عوني، ترنَّح جسد عوني لوهلة وسقط، ثم وقف بعدها وهو ينفض ملابسه من التراب الذي علق أثناء وقوعه.

قال حسام في ذهول:

- ما هذا؟

- مشكلتك أنك تفهم متأخرًا حضرة الضابط. مديتك لن تفعل شيئًا فيَّ. ولا طلقات مسدسك لها أي تأثير.

ارتفع نُباح الكلاب عاليًا مرة أخرى بصورة أشد قوة، وبعد لحظات كان هناك خمسة من الكلاب تحيط بعوني، وحسام في نصف دائرة، وقد تساقط الزَّبد من أشداقهم.

أخذ حسام يدور حول نفسه وهو يوجه المسدس ناحية الكلاب.

قال عوني وهو في مكانه:

- طلقة واحدة وسيغرسون أسنانهم في جسدك وينهشون لحمك.

بلع حسام ريقه بصعوبة وهو يقول:

- مَنْ أنت؟ كيف لم تمت؟

- أنا كما قلتُ لك من قبل عوني البكري أستاذ كيمياء، الذي لم تعرفه أنني خطيب هدى عبد الفتاح التي قتلتها أنتَ.

اتسعت عينا حسام وهو يرى الكلاب واقفة في وضع الانقضاض وهو يقول بصوت غاضب:

- هذا لا يفسر أنك تقف أمامي الآن بعد أن طعنتك، وأطلقت عليك النار.

انطلقت ضحكة قوية من بين شفتي عوني الذي قال بعدها:

- لأنني ميت حقًّا منذ ثلاث سنوات، أو في نظر الجميع ميت انفجر معملي بي، ومت! قتلك لهدى من جعلني أعود.

- لا أحد يعود من الموت.

- ما زلتَ لا تفهم. لا تفهم. أتظن أن عشقك لقتل الضباط هذا يجعلك تفهم كل شيء.. حقيقة لا أريد أن أعرف مبرراتك لقتل زملائك. فكل منا له مشكلاته الخاصة يحلها بطريقته.

انطلق صوت حسام ساخطًا عنيفًا:

- كلاّ. هناك خطأ ما. أنت غير حقيقي. أنت وهم.

انطلقت ضحكةٍ عالية أخرى ولكن هذه المرة من خلف حسام الذي التفت فرآها تميل على الكلاب وتتحسس شعرها، كانت تقف في تلك اللحظة وقد تدلى فكُّها وظهر أثر نحِر على رقبتها وكأن هناك من أعاد خياطة رقبتها بجسدها، وقالت وهي تتأمل جسد حسام:

- حان وقت ذهابك حضرة الضابط.. عرفنا أنك ستأتي لهنا بقدميك.

اتسعت عينا حسام رعبًا وهو يراها أمامه، أفرغ مسدسه في جسدها وجسد عوني وهما ينصرفان من أمامه، وعوني يشير له بيده مُودِّعًا، قبل أن يرى حسام تلك الكلاب تقترب ناحيته في وحشية وقد انطلق من بين فكيها الموت في أبشع صورة.

راحت صرخات الضابط حسام تعلو بشدة رهيبة، وعوني وهدى يقطعان المقابر في هدوء متشابكي الأيدي.

محمد إبراهيم محروس

ذلك الذي جاء



تحوم الكاميرا حول ذلك المشهد الكائن أمامك.

أمطار، وحل، وذلك البيت العتيق على أطراف تلك القرية الموحشة، تحيطه الأشجار من كل جانب، فتكسبه طابعًا مُقبضًا.

تبدو القرية خالية تمامًا، وتلك الرائحة المميزة ذات المذاق الصدئ قليلًا تشي بكمية الدماء التي أُريقت على أرضها.

رائحة الجثث في كل مكان، ولا أثر لكائن حي على مرمى البصر.

***

هناك.. داخل ذلك البيت العتيق الموحش، يجلس هو في الركن ساكنًا يُحدّق في السقف.

لا أحد يدري ما الذي حدث في القرية بالضبط؟ ولا من هو ذلك الذي جاء ليحيلها إلى جحيم. لا أحد يعرف شيئًا على الإطلاق، ولم يعد أحدً باقيًا ليُخمن.

وها هو ذا، يختبئ مما يحدث في الخارج. يجب ألّا يجده. ***

شعور الجوع هذا. لم يضع شيئًا في فمه منذ فترة، ومعدته بدأت في إصدار الأصوات. يجب أن يجد بعض الطعام وإلا مات جوعًا.

يزفر زفرة حارة ليتصاعد من فمه البخار ليعطي مع منظر البيت المظلم وصوت الأمطار في الخارج طابعًا مُقبِضًا، يدفعه ليدير عينه نحو النافذة.

قطرات الأمطار تتساقط على زجاجها، وضوء المشاعل الملقاة أرضًا بالخارج وسط الوحل ما زال مشتعلًا برغم الأمطار.

يجب أن يخرج من القرية قبل أن يجده أحد. مُتسلّلًا تحت الأمطار والظلام. لكنه لا يجرؤ على أن يخطو بالخارج، فأرض القرية تعجُّ بمن كانوا يظنون في أنفسهم نفس الفكرة.

إذًا ماذا سيفعل؟

يجذب شيئًا ما انتباهه لينتزعه من شروده، فيدير وجهه من جديد نحو النافذة.

يكاد يقسم أنه رأى ظِلًّا يعبر من أمام النافذة.. ظِلًّا له تكوين بشري.

دقات قلبه تتسارع، وأنفاسه تتوالى، والبخار المتصاعد يبدو أشبه بشبح الخوف الذي يسيطر على المكان كله من حوله.

ثم.. (بوم. بوم. بوم).

تلك الطرقات التي توشك على انتزاع الباب الخشبي المتهالك من مكانه.

يتراجع في جلوسه إلى الخلف ليلتصق ظهره بالجدار وهو يرمق الباب في ذعر.

(بوم. بوم. بوم).. من جديد.

ذلك الصوت الذي يميزه بصعوبة من خلف الباب.

– إفـــ.. راء. قا. تح. .

هل هذا صوت كلام؟ أهو يتكلم؟

ربما بنفس السهولة يمكنه أن يتخيل أنه أحمق، وأن هذا صوت زئير أو خوار أو أي صوت مماثل.

ماذا سيفعل؟

حياته كلها تتوقف على ذلك القرار المصيري.

هل يفتح الباب؟

(بوم. بوم. بوم)

أم لا؟

لا يمكنه أن يقرر.

تلك الرائحة التي تدخل أنفك فتثير فيك الغثيان، والرغبة في السعال. رائحة الجثث المتعفنة الممتزجة برائحة الدماء، ورائحةَ شيء ما لا تدري ما هو. من أين تأتي؟

لا وقت لهذا.

(بوم. بوم. بوم)

التقط السكين الحديدي الطويل من جواره، ونهض واقفًا في بطء.

ذلك الوميض السريع الذي ينعكس من النافذة ويضيء الجدران بذلك اللون الأزرق البارد، ويتبعه هزيم الرعد.

يتقدم نحو الباب في بطء.

يمتزج صوت صرير الأرضية الخشبية للمنزل تحت قدميه، بصوت الأمطار المتساقطة على النافذة، فيملأ قلبك وجلًا.

(بوم. بوم.)

دقتان فقط. الضعف واضح على قوة الطارق.

يتوقف في مكانه لحظة.

هل هذا يعني أن الطارق بشري؟ ربما كانت خدعة ليجعله يفتح الباب، ولكن لماذا ينتظره أن يفتح الباب من الأساس؟ يمكنه اقتلاعه من مكانه بنفس السهولة.

يتقدم في بطء من جديد نحو الباب، وصوت الأرض الخشبية يعوي تحت قدميه.

إنه أمام الباب الآن.

يصغي السمع.. لا يمكنه أن يميز صوتًا بالخارج سوى صوت الأمطار وصفير الرياح الممتزج بحفيف الأشجار.

يضع يده على المقبض البارد، ويرفع يده الأخرى بالسكين، ويلتقط نفسًا عميقًا.

دقات قلبه تتسارع. هذه هي لحظة الحقيقة لو كان مخطئًا فلن يتألم بالتأكيد. يأمل أن يكون موته سريعًا نظيفًا على طريقة (نور — ظلام) الشهيرة.

الآن أنت هنا، والآن أنت هناك.

يزفر في توجُّس ليتصاعد البخار، ثم يدير المقبض في قوة، وينفتح الباب.

ذلك الجسد الذي يسقط موضع قدميه مبتلًا يرتجف. الرياح باردة فعلًا، والأمطار والوحل يزيدان الأمر سوءًا.

ينحني على ذلك الجسد. إنه جاره. يتحسّس نبض عنقه. ما زال الأحمق حيًّا.

ألقى السكين جانبًا ليدوي الصوت المعدني الرنان، ثم جذبه إلى الداخل في سرعة وأغلقَ الباب بقدمه.

إنه يحتاج إلى الدفء. يجب أن يدفئه حتى لا يموت بردًا.

انتزع سُترته ليضعها فوق الجسد المرتجف، ثم التقط السكين وجلس بجواره صامتًا.

ترى كيف نجا منه؟ ما الذي فعله بالضبط، وأين اختبأ؟

كل هذا ليس مهمًّا الآن. إنه معه وأمامه، وهذا يكفي.

يمر الوقت، ويتساقط المطر أكثر وهو يجلس بجواره.

ثم تبدأ أصابعه في التحرُّك. إنه يستيقظ.

يميل جسده، ويريح ظهره على الحائط في وضع الجلوس.

الصمت.. الصمت يُخيم عليهما، فلا يدري أحدهما ماذا يقول.

يخرج صوت الناجي من بين شفتيه مرتجفًا:

– شكرًا.. لو لم تفتح لي لانتهى أمري بالتأكيد.

يومىء برأسه إيجابًا، وتتحرك شفتاه بكلام غير مفهوم ثم يقول:

– أين زوجتك وطفلتك؟!

ينظر له في صمت، وتلتمع عيناه على ضوء البرق.. هل تلك التي في عينه هي قطرات أمطار حقًّا؟

- أنا آسف.

لا يرد.

شعور الجوع هذا. يشعر أنه سيموت جوعًا. ليس من اللائق أنه يسأله بعض الطعام الآن.

- إنه يلتهم جثثهم.

يدير عينيه إليه في تساؤل:

- ماذا؟

- يقتلهم، ثم يلتهم جثثهم حتى العظام.

الدهشة تمتزج بالرُّعب.

- ولماذا؟

يسود الصمت برهة.. ثم يخرج صوته مرتجفًا مُتهدِّجًا لا أثر للدموع فيه. بل هو أشبه بالغضب.

- لأنه وغد مريض.

يصمت لحظة، ثم يتابع:

- يجب أن نجده. نجده، وننحت عظامه بالنصال.

تلك الرائحة الخانقة في كل مكان حولهما، تدفعه لأن يدير عينيه حوله باحثًا.

- ما تلك الرائحة؟ أوشكُ على القيء.

يهز كتفيه علامة الحيرة، فينهض الأول باحثًا في البيت، ينهض هو خلفه.

الرائحة النفاذة تمتزج بشعور الجوع لتثير في نفسه إحساس الغثيان.

يتبعه حتى تلك الغرفة في الركن.. الرائحة عندها أقوى لدرجة توشك على أن تفقده الوعي.

يضع الناجي يده على أنفه، وفمه ويفتح الباب على مصراعيه كاشفًا المشهد.. تلك الجثة الممزقة الملقاة على الأرض.

الدماء تُغرق كل شبر في الغرفة.. حتى الجدران. لا يبدو منظرها طبيعيًّا، ولا يوحي بأنها تناثرت أثناء التمزيق. بل هي موضوعة على الجدران عمدًا.

يقترب من الجثة وهو يضيق عينيه ويلتقط أنفاسه في صعوبة وسط الرائحة.

الذباب ينهش الجسد المُسجَّى على الأرض، ويهاجم يديه اللتين تُديران الجثة في ضراوة.

يدير الجثة الثقيلة، ثم يرفع العنق بيده الأخرى ويُديره في اتجاهه ليرى الوجه.

إنه يراه.. يرى الوجه.. يراه، وينتفض قلبه بين ضلوعه ذُعرًا، وتوشق ساقاه على التحول على عجين.

تلك القشعريرة الباردة التي تزحف على ظهره.. قشعريرة من عرف الحقيقة، وعرف أنها ليست في صالحه.

يستدير في بطء في جلسته إلى حيث يقف الآخر.ويحاول الوقوف، ولكن قدمه المرتجفة لا تحتمله فيسقط أرضًا.

نظرة الفزع في عينيه أكثر تعبيرًا من أي كلمات.

وهو.

هو هناك.

يقف على باب الغرفة مراقبًا إياه وهو يبتسم ابتسامة دافئة.

يرفع يده في بطء وتلتمع السكين مع ضوء البرق البارد.

شعور الجوع هذا.

يشعر بأنه لم يضع شيئًا في فمه منذ فترة.

لم يكن من الممكن التهام تلك الجثة بالتأكيد، فقد كان يحتاج أن تكون بكامل أنسجتها حتى يستطيع استعمالها. ربما اختلسَ بعض الرشفات من دمائها، وهو يغطي الحوائط بها، ولكن هذا ليس كافيًا بالتأكيد. إنه يحتاج إلى اللّحم.

يبدأ في التقدُّم نحوه وهو يستعيد في بطء شكله الحقيقي.

يتراجع الناجي زاحفًا إلى الخلف، وقد احتُبست الصرخة في حلقه من هول المشهد، فلم يعد قادرًا على الصراخ.

يتقدم نحوه بخطوات واسعة، ونفس الابتسامة الدافئة على وجهه.

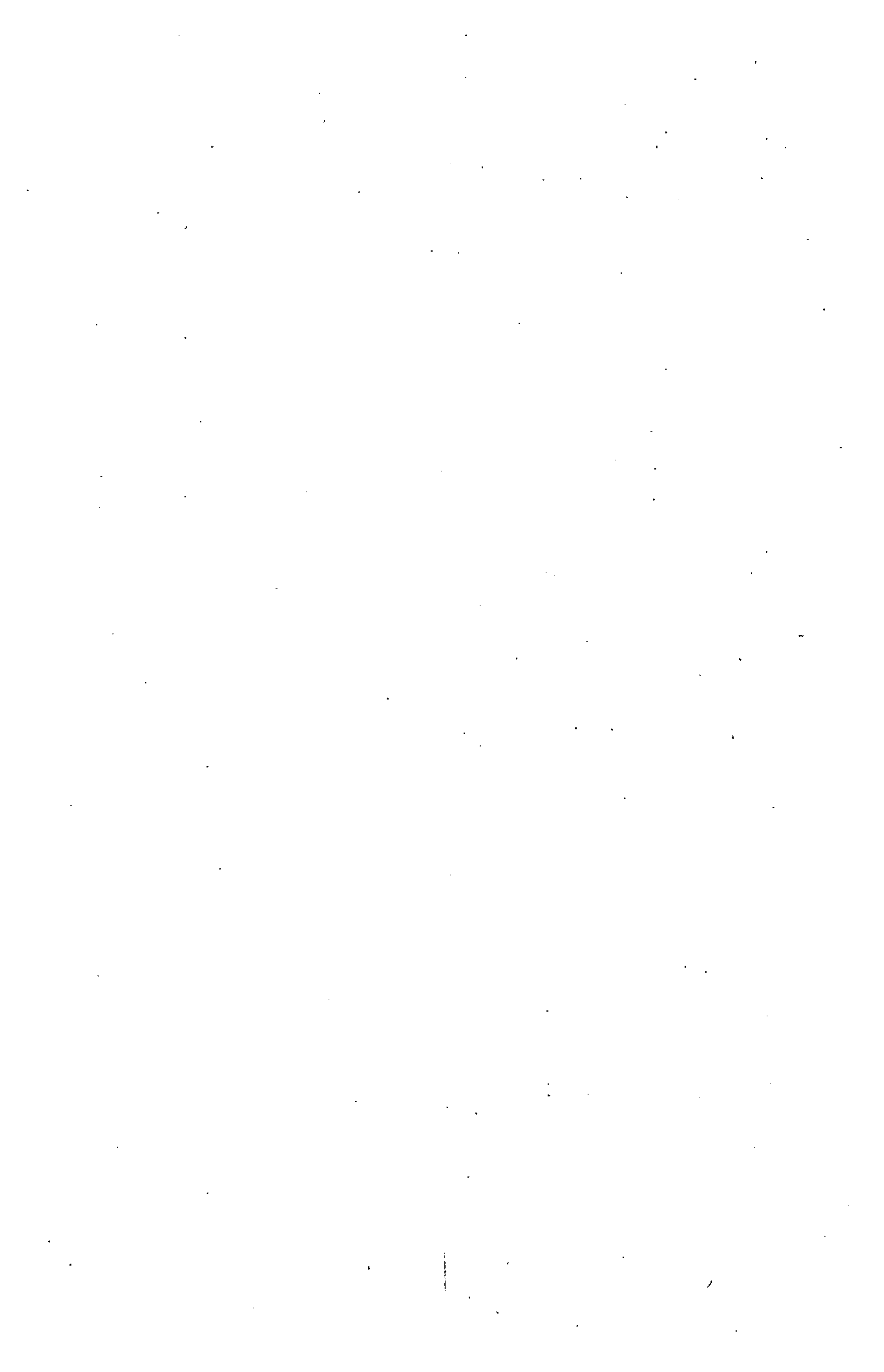
إنه الناجي الأخير في القرية كلها، لذا يجب أن يستغل لحمه على أكمل وجه، فربما لن يجد وجبة أخرى إلا بعد فترة طويلة.

يرفع السكين عاليًا، ثم يهوي به لتتناثر قطرات الدماء في وجهك.

ويُظلم المشهد أمامك تمامًا.

محمود علام

الذين سَقَطوا مِن السماء



اللعنة! إضاءة النيون البيضاء ساطعة للغاية. لم أعلم أنها ساطعة هكذا من قبل. أنظر إليها كما أنظر للشمس مُرغمًا لأنها فوق رأسي لا تتزحزح. أتقلبُ يمينًا أو يسارًا. أجد الضوء مسلطًا في جوانب عيني. والصوت. صوتها المقزز يطرق رأسي بمطارق من الجحيم. لماذا هذه الإضاءات تلك الأصوات اللعينة إنها تتداخل مع دقات ساعة الحائط الرتيبة فتصنع لحنًا نشازًا يُضاهي في صخبه أصوات غناء المراهقين وهم يتراقصون على نقيق المهرجانات المزعج. ما هذا الضيق والضجر؟! مَنْ الذي قال إن المستشفيات بُنيت لعلاج المرضى وراحتِهم؟! لماذا لم يخبرونا الحقيقة.. أنه تم بناء هذه المستشفيات لكي يستشعر المريض أن هذه الحياة لا تُطاق، ويجب الرحيل منها سريعًا. نعم، تلك وظيفة هذه البنايات أن تُشجِّعك للرحيل سريعًا من هذه الدنيا. فالموت لي أفضل من سماع آهات المرضي المتألمين لكونهم بدون رعاية طوال الليل أو ضحكات الممرضات ونميمتهم أثناء النهار. يا ليتني اختفيتُ من قبل مع الذين اختفوا من قبل في صمتٍ وغموض!

تطلعتُ إلى المُمرضة البدينة القصيرة من خلف ستارةٍ بالية فوق سريري وهي تلوك قطعة علكة كبيرة بين أضراسها المُتهالكة، وهي تُحدِّثني برتابة:

- ضابط الشرطة قد قدم لرؤيتك الآن."

ليهلَّ عليَّ مِن خلفها ضابطُ الشرطة المُبتعَث للتحقيق معي، ولم يكن كما توقعته وسيمًا وبجسد رياضي كما يظهرون في الأفلام والأعمال الدرامية، ولكن كان يحمل نفس الصفات الجسدية التي يستخدمها المخرجون في تلك الأعمال لتقديم المخبرين والمرشدين.

نظر إليَّ الضابط بعينين متفحصتين مُتمحِّصتين وبشاربه الضخم الكث الذي يجسم فوق فمه الكبير. ثم سحب كرسيًّا وجلس بجوار سريري في الحال، وظهر خلفه شابٌّ في منتصف العشرينيات بيده دفتر وقلم، ووقَفَ بجوارنا يستند على الحائط، وأخذ يدوّن الحديث الذي يدور بيننا.. الذي بدأه الضابط في الحال وهو يحدثني بصوته الشديد الغليظ:

- نحمد الله على سلامتك يا سيد ماجد. أنا أعلم أنك مُصابٌ، ولم تستعِد صحتك بالكامل بعد، ولكني أرغبُ في أن تُمدَّ لنا يد المساعدة في تحقيقاتنا لأنك الوحيد الذي يزعم أنه يعلم ما حَدَثَ في تلك الأحداث الغامضة التي أرَّقتنا جميعًا. فأرجو أن تشرح لي بالتفصيل الشديد ما حدث معك من البداية.

فبادل الضابط نظرةً مع الشاب المرافق له فتعلّق الشاب في الحال بقلمه وهو مُتحفِّز كالفارس وهو يحمل سلاحه استعدادًا للمعركة. جالت في خاطري العديد من الأفكار. وترددت لحظات، هل أستطيع أن أخبرهم عن هذا السِّرِّ بالفعل. ولكن يجب عليَّ أن أفعل ذلك لنفسي أولًا لكي أشعر بالارتياح. فما أحمله من أسرار ما بين طياتي أرهقتني كثيرًا، وجعلت النوم يجافي جفوني لليالي طويلة. أخذتُ نفسًا قويًّا من أنفي وأخرجته من فمي فأخرجت معه الكثير من مخاوفي وقلقي فتوجهتُ إلى الضابط ومرافقه وبدأت في حديثي:

- حسنًا، سوف أخبركم بكل شيء، ولكن يجب أن تصدقوني ولا تقاطعوني أبدًا حتى ولو بدا حديثي غريبًا ومُريبًا للغاية.

اكتفى الضابط بأن هز رأسه لي،وهو يشير بيده لكي أُكمل حديثي والشاب وراءه يُدوِّن كل ما يخرج من فمي.

- أُعرّفك بنفسي أولًا.. أنا ماجد محمد.. شاب في منتصف الثلاثينيات خريج كلية الحاسبات والمعلومات. أعمل بتصميم البرامج لأجهزة الحاسب الآلي والهواتف النقالة. ولهذا كنتُ أمكث بداخل المنزل أوقاتًا كثيرة. أحيانًا تصل أعوامًا لا أخرجُ بها من المنزل. كانت الإثارة الوحيدة في حياتي في تلك الفترة هي ممارسة لعبة نداء الواجب، ودووم وما يشابها من ألعاب الحاسب هي التي كانت تدخل البهجة والإثارة إلى حياتي الرتيبة.

وظلت الأمور هكذا إلى أن أتى شهر سبتمبر من هذا العام. هنا بدأت حياتي تتغير. فلقد بدأت جميع الأحداث بمكالمة من صديقي المقرب، أحمد مراد وهو كاتب روائي مشهور.. حدَّثني يومها في الهاتف، وأخبرني بشيءٍ غريبٍ للغاية. لقد اختفت زوجته أسماء فجأةً،وهنا اندهشتُ بشدة مِمَّا قاله لأني أعلم مدى حب أحمد لزوجته، وما مدى النجاح في زواجهما الذي استمرَّ مدة خمسة أعوام، وطلب مني أن أقابله لكي أساعده في العثور عليها لأني صديقه المُقرَّب والوحيد الذي يثق به.. تملكتني مشاعر القلق والحيرة. فأنا لم أقم بفعل شيء كهذا في حياتي من قبل، ولن أستطيع أن أساعد أحمد كثيرًا في ذلك الأمر، ولكني وافقتُ مرغمًا حتى لا يقال إني تخليتُ عن صديقي وقت أزمته.

تقابلنا في يوم السبت الثالث من سبتمبر على مقهًى في ميدان التحرير، وبدأ يحكي لي أن زوجته اختفت يوم الخميس السابق دون أي سببٍ وبدون أي أثر خلفها، وأنها كانت تذهب إلى منزل والدها كل خميس في نهاية الأسبوع، ولكنها خرجت في ذلك اليوم، ولم تذهب إلى والدها أو إلى أحد أصدقائها ولم تُعد إلى المنزل، ولم يعثر على أي أثر لها في أي مكان آخر، وأنه منذ ذلك اليوم، وهو يشعر بالقلق الشديد عليها، وأنه لا يدري ماذا يفعل الآن أو كيف يتصرف؟، وأنه يخشى أن يكون قد خطفها شخص ما أو قد حدث الأسوأ وقُتلت.

فابتسمت له، وأنا أحاول أن أهدئه، وأخبره أن ما يقوله هو محض هراء نظرًا لتأثره بكتاباته البوليسية التي يكتبها،وطلبت منه أن نبدأ في تقديم بلاغ للشرطة أولًا عن اختفائها..ثم نبدأ في إجراءات البحث العادية المتبعة، ونبحث عنها في المستشفيات وما شابه، وبالفعل بدأنا رحلة البحث عن زوجته، وبدأت معاها قصتنا الغريبة. فلقد ذهبنا أولًا إلى أحد الأقسام القريبة من منزل أحمد لتقديم بلاغ عن اختفاء زوجته، ولكن وجدنا شيئًا أدهشنا للغاية.

لقد وجدنا القسم ممتلئًا عن آخره، وصفوف المواطنين أمام القسم تصل إلى ثلاثة أمتار. فتعجبنا جميعًا مما شاهدنا، فسألنا بعض الجنود عن سرِّ هذا الزحام أمام هذا القسم، ولكن لم نتحصَّل على أي رُدود منهم. فجميع الجنود والضباط كانوا منهمكين في ترتيب الصفوف والتحدث مع المبلغين الغاضبين، وتعالت أصوات الصياح، والعراك بين الأهالي وبعضهم..

فتركنا الصف أنا، وأحمد وتوجَّهنا إلى أحد الأقسام الأخرى، ولكننا تفاجأنا بوجود نفس المشهد السابق الصفوف الطويلة الضخمة، ولكن بشكل أكبر مِمَّا سبق وأقل تنظيمًا.

فأخبرني أحمد أننا سننصرف، ونذهب إلى قسم الدقي لأن له أحد المعارف من الضباط يعمل هناك، ولن نقف في صفوف طويلة مثل تلك التي أمامنا، وبالفعل توجَّهنا إلى قسم الدقي في عصر ذلك اليوم

لنتفاجأ بوجود صفٍّ وزحامٍ كبير أمام ذلك القسم أيضًا. هنا انتابنا الفضول الشديد. فتلافى أحمد وجود الصفوف أمامه وأخذ يتوجَّه إلى داخل القسم لمقابلة الضابط صديقه، ولكن منعه الجنود من الدخول بالقوة فصرخ أحمد غاضبًا في الجنود، وبدأ يتعارك معهم لعدة دقائق. خرج على أثرها بعض الضباط ليشاهدوا لماذا حدثت هذه الجلبة، ومنهم كان الضابط الذي يعرفه أحمد. فنادى عليه في الحال، وأدخله إلى القسم وأنا معه وأجلسنا في مكتبه، وتأسَّف لنا عمَّا فعله الجنود بالخارج لأن القسم يضجُّ بالناس منذ الصباح. فسأله أحمد بفضول شديد: ولماذا حدث ذلك الزحام؟ فأخبره الضابط أن معظم هؤلاء الواقفين بالخارج قد أتوا لتقديم بلاغات عن اختفاء ذويهم في ظروف غامضة، وجميعهم يتشاركون في أنهم اختفوا يوم الخميس، واختفى الجميع بدون أي أثر. هنا تبادلنا النظرات أنا وأحمد ونحن مندهشان بشدة. ثم تحدث أحمد إلى الضابط بلهفة:

- وأنا أيضًا لقد أتيت اليوم إلى القسم لكي أبلغ عن زوجتي التي اختفت يوم الخميس السابق دون أي أثر.

فهز الضابط رأسه إليه وبدون أي مبالاة أعطاه ورقتين ورقةً فارغةً وورقةً بها صيغة عن البلاغ، وأمره أن يملأ الورقة الفارغة مثل الورقة الأخرى، فيبدو أن الضابط قد مَرَّ بذلك الأمر العديد من المرات في هذا اليوم.

أخذ أحمد يملأ الورقة أمامه والضابط يراقبه في مللٍ وضيق بينما أنا بدأ عقلي ينضح بالتساؤلات والفضول. لقد مررنا بثلاثة أقسام حتى الآن في أماكن مختلفة، وكلهم ممتلئون بأشخاص يبلغون عن اختفاء ذويهم يوم الخميس السابق. إذًا أحمد ليس بمفرده في هذا الأمر. ماذا يا تُرى قد حدث هنا. هل اختفاء هؤلاء الأشخاص قد حدث بالمصادفة. بالطبع لا. هل لديهم عوامل مشتركة. هل هذا الحدث في القاهرة فقط أم يحدث في أماكن أخرى. أسئلة كثيرة ملأت عقلي، ونبشت فضولي.

انتهى أحمد أخيرًا مما يفعله وأعطى الضابط الورقة الذي أخبره أنه سيهتمُّ بالأمر وسوف يجعل العثور على زوجة أحمد من أولوياته القُصوى، ولكننا كنا ننصرف من أمامه، ونحن نعلم أنه لن يُحرك ساكنًا في هذا الأمر حتى ولو أراد ذلك. فبالتأكيد هناك من لديه واسطة أكبر وأكثر نفوذًا من أحمد سوف يكون له هو الأولوية والاهتمام الأكبر عند اختفاء أحد أقاربه.

ظللنا أنا وأحمد نجوب الشوارع بلا هدى في ذلك اليوم، وأنا لا أفعل أي شيء سوى أن أواسيه ببضع كلمات صماء فارغة من قبيل.

"سوف نجدها قريبًا. سوف تكون بخير. ستعود سالمة.".

وهو يتصنع بأنه استمع لي، ولكني أثق أن كلماتي تلك لم تصل إلى مسامع أذنه أصلًا، وانتهى بحثنا في العاشرة مساء. وعدنا إلى منازلنا.

ألقيت بملابسي في غرفة نومي، وارتديت شورت صغيرًا، وتوجهت في الحال إلى غرفة المعيشة، وقمتُ بفتح جهاز الحاسب أمامي إلى هذا اليوم الذي يعتبر هو مركز الأرض في حياتي تلك،لقد اشتقت إليه وأوحشني للغاية بعد أن ابتعدت عنه عدة ساعات كاملة، وفتحت بعض علب الطعام الجاهزة اللذيذة أمامي، وبدأت ألتهم منها بنهم شديد، وأنا أُطالِع بعض المواقع الإخبارية لأجد معلومات عن عمليات الاختفاء الغامضة تلك.. مرت نصف ساعة سريعًا، ولم أجد أي معلومات تُفيدني في ذلك الأمر. فتوقفتُ عن مُطالعة مواقع الأخبار، وتوجهتُ إلى فتح مواقع التواصل الاجتماعي، ثم تركتُها قليلًا، وقمتُ بإعادة ملء الأطباق الفارغة أمامي من جديد، وأخذت ألوك ما بها من طعام دسم غير صحي، وشعرت بسعادة بالغة، وأنا أشرب المياه الغازية بسرعة شديدة كأنها آخر ما سأبتلعه في هذه الدنيا، وبدأتُ بمطالعة مواقع التواصل الاجتماعي التي لم تُخيِّب ظني، وبدأت سحابة المواقع تمطر خبرًا من هنا وحدثًا من هناك، وظلت تمطر وتمطر حتى امتلأ وعائي بأكمله في أربع ساعات. قد اكتملت فيها عدة نظريات عن عمليات الاختفاء الغامض تلك. ولقد اكتشفتُ شيئًا هائلًا في ذلك الوقت حيث اكتشفتُ أن حوادث الاختفاء تلك لم تحدث في مصر فقط بل كانت حدثًا عالميًّا في أنحاء العالم. هنا بدأ فضولي يكبر ويكبر، فنحن الآن أمام حوادث عالمية وليست محلية فقط.

ماذا يحدث؟ لماذا اختفى هؤلاء؟ وكيف اختفوا؟ وأين اختفوا؟ هل هناك منظماتٍ ما وراء اختفائهم؟ أو حكوماتٍ ما؟ هل هم الماسونيين ونحن بصدد مؤامرة عالمية؟ هل هم الفضائيون وسكان الكواكب الأخرى ونحن بصدد مؤامرة كونية؟ ولو حدث ذلك وأن أحد هؤلاء فمن السبب في ذلك؟ فلماذا الآن؟ لماذا هذا الوقت بالذات؟

أسئلة كثيرة اختمرت في عقلي ولم أجد لها إجابة.

مرت عدة أيام أخرى كنت أذهب مع أحمد بالنهار نتصنع أنا وهو أننا نحاول العثور على زوجته، وبالليل أعود لكي أتابع أبحاثي وتساؤلاتي، وأضع أمام كل نظرية تظهر أمامي على الطاولة كلمة لماذا. لماذا. ولماذا. وكلما كثرت النظريات. كلما كثرت لماذا.

بعد أن انتهيت أنا، وأحمد من البحث في نهاية يوم الأربعاء. وقد ضجرت من كثرة اللّف والدوران نويت أن أعود إلى منزلي اليوم، وأتحجّج بأي حجة. وأختلق أي عذر حتى لا أُشاركه في عملية البحث المُملّة تلك بعد الآن لأنها دون جدوى.

لا تنظر إليّ هكذا. أنا لست صديقًا سيئًا، ولكن لنكن واقعيين. أشخاص من مختلف الأنواع، والأجناس قد اختفوا، وبلاد أكثر تقدمًا وتكنولوجيا مما لدينا، ولم يستطيعوا العثور على أحد.. فكيف سوف نجد زوجة أحمد، وهي واحدة من وسط الآلاف من هؤلاء الأشخاص. هذا ما قد اقتنعت به، وهداني تفكيري إليه. فأنا اليوم

سوف أتوقَّف عن البحث عن زوجتك يا صديقي. إذا كنت تحبها فلتبحث عنها إلى آخر العمر بمفردك. لا يهمني الأمر. لكن لا تُشركني في ذلك.

وبالفعل اتصل بي أحمد في صباح يوم الخميس وكنتُ مُهيَّئًا نفسيًّا، وجسديًّا لكي أُلقي عليه العُذر المحنك لعدم ذهابي معه في عمليات البحث تلك بعد الآن. قمت بمراجعة جودة الكذبة جيدًا. ثم قمت بالرد عليه سريعًا.

– أحمد صديقي كيف حالك؟

ولكنه باغتني بكلمات قليلة مقتضبة دمرت كل خططي في الحال. صرخ بعلوِّ صوته وبفرح شديد:

– ماجد. لقد وجدوها.. لقد وجدوها.. أحد معارفي رآها صباح اليوم في المول التجاري الذي اعتدنا التبضع منه. سوف أسبِقُك إلى هناك الآن، وعندما تصل أخبرني لنبدأ البحث عنها في الحال. أخيرًا. أخيرًا سوف أرى أسماء مرةً أخرى.

ثم أغلق الهاتف. بعد أن سمعت نبرة الفرح تلك في صوته قمت ببلع عذري، وحُججي في حلقي، وشربت بعدها كوبًا من الماء الفاتر ثم توجهت إلى غرفتي لأرتدي ملابسي وأنا مُتشككٌ في أن يكون أحمد قد توصل إلى مكان زوجته فعلًا.

لماذا زوجته هي الوحيدة التي ظهرت من كل هؤلاء المختفين؟.

كنت متشككًا للغاية، ومتأكدًا من عدم جدوى ذهابي إلى هناك، ولكني كنتُ في مواجهة شيء لا توجد أي قوة على الأرض أن تقف في وجهه. إنه الأمل. مَن يتشبث بالأمل لا تستطيع أن تُثنيه عن فعل أي شيء، وبعد أن اعترفت بهزيمة شكوكي أمام آمال صديقي أذعنتُ للأمر ونويتُ أن أُتابع البحث معه مرةً أخرى، وبالفعل ذهبتُ بعد ساعة بالضبط إلى المول التجاري الكبير، وأخذت أُهاتف أحمد، وأنا أتمعَّن في المول وزوَّاره جيدًا، وأنا أتساءل:

- كيف سوف نستطيع أن نبحث عن شخص مفقود في وسط هذا العدد الكبير من الناس؟

لم يرد أحمد على هاتفه، واكتفى بأن بعث إليَّ برسالة بأنه سوف يبحث عن زوجته في الأماكن التي كانوا يعتادون الذهاب إليها في هذا المول، وأنا أبحث بمفردي في باقي الأنحاء.

دفعتُ هاتفي إلى جيبي في ضيق وبدأت أصول واجول في أنحاء هذا المول العملاق بمفردي بمحلاته التجارية، ومطاعمه، وكافترياته المختلفة.

ظللتُ أغوص بين رُوَّاده كما تغوص السمكة الصغيرة في بواطن المحيطات الكبيرة. في ظل المشي الكثير بلا هدي سرعان ما تناسيتُ ما أقوم به من مهام البحث والتنقيب، وتوجه بحثي وتنقيبي إلى الأشياء

الأخرى التي تثير اهتمامي كمحلات ألعاب الحاسب، ومتاجر الكوميكس، والمجلات الهزلية.

في وسط تجوالي في الدور الثالث بالمول لفت انتباهي محلٌ لبيع العطور. فذهبت إليه في الحال وصُعقت بشدة عندما وجدت معروضًا في فاترينته الصغيرة عطر "مون دي لامون" فهذا العطر كنتُ أبحثُ عنه باستماتة ولم أجده من قبل. سعره صحيح 3 أضعاف سعره العادي، ولكنه موجود الآن فلا يهم السعر، سوف أتحصّل عليه بأي طريقة ممكنة، فتوجَّهت سريعًا بداخل المتجر وابتعته من إحدى الفتيات الفاتنات التي تجعلك تريد الشراء من المتجر فقط لأنك تريد أن تتبادل بعض الكلمات مع تلك الفتاة المليحة، وتستطيع أن تُحدّثها بما يحلو لك من كلام أحمق فارغ، وتُلقي عليها الكثير من الدعابات المملة، وأنت متأكد أنها سوف تضحك عليها حتى الثمالة دون أن يكون لها الحق في أن تعترض أو تناقش هذا الهراء الذي تتحدث به.

ابتعتُ منها العطر، وأجزلتُ لها في البقشيش، فابتسمت لي بسرور، وهمّت تمُدُ يدها لتُعطيني زجاجة العطر الملفوفة بأناقة. فانتهزت تلك الفرصة، وحاولت أن أتلّمس يدها البيضاء النضرة ذات الجلد الناعم الشبيه بجلد الأطفال حديثي الولادة. هذه فرصة نادرة للغاية أن المس يدًا مثل هذه لا تراها إلا في أحلامك. أو على الأقل في أحلامي أنا. ثم أنا قد دفعتُ البقشيش من أجل هذه اللحظة.

فممدتُ يدي بسرعة وأنا متربص لتلمُّس يديها ويا لها من لحظةٍ تاريخية لي! فلقد لمست يدها الناعمة بالفعل، ولكن يا للأسف لم تدم أكثر من ثانية واحدة فقط. ولم ألحق الاستمتاع بها كثيرًا. نظرًا لأن زجاجة العطر قد سقطت على الأرض وتحطمت في الحال. نظرت إلى الزجاجة المحطمة على الأرض أسفل مني مصدومًا، فجثوتُ على ركبتي لكي ألتقط ما تبقّى من الزجاجة المحطمة، وأنا غاضب والعطر الفواح يملأ المكان ويكتم أنفاسي برائحته العَطِره. سيطر الغضب عليَّ بشدة وهممتُ أن أُخرِج هذا الغضب على تلك الفتاة الجميلة حتى ولو كنت مسئولًا جزئيًّا عن هذا الخطأ. لأن العميل دائمًا على حق. فوقفتُ في مكاني في الحال، وعيناي تحملان شرر الغضب المسلط على تلك الفتاة، وملأت رئتي بأصوات صراخي لأصرخ عليها بأعلى صوتي لكني لم أجدها أمامي. شعرت بالدهشة أين ذهبت. لقد كانت أمامي حالًا، هل ركضتْ مُبتعدةً عني لأنها شعرت بالذُّعر من تحطم زجاجة العطر؟ ولكن متى هربت؟ فلم تمر إلا لحظات قليلة للغاية.

نظرتُ حولي في أرجاء المتجر الصغير الذي لا يتجاوز الأربعة أمتار، فلم أجد سوى فتاةٍ شابة تبحث حولها في ريبةٍ فسألتُها في الحال:

– أنا آسف يا سيدتي. لكن ألم تشاهدي بائعة العطور التي كانت أمامي؟"

فهزّت رأسها نافية ثم سألتي أنا أيضًا:

– ألم ترَ أنت خطيبي؟ لقد كان يقف بجواري الآن.

نظرتُ إليها مندهشًا، وعدت للبحث مرةً أخرى عن البائعة بداخل المتجر، ولكن استوقفتني فجأة صرخة كبيرة سمعتها من الخارج.. فخرجت في الحال لأرى ماذا حدث لأجد على بعد عدة أمتار من المتجر سيدة تصرخ وهي تبحث حولها:

– ابنتي.. ابنتي الصغيرة لقد كانت بجواري ابنتي.. أين ذهبت ابنتي؟.

تجمّع حولها بعض المارة ليستفسروا عمّا حدث، وهي تشرح لهم اختفاء ابنتها وهي تصرخ، وفجأة تعالت أصوات الصياح والصراخ في قلب المكان

– أين زوجي؟ أين والدتي؟ لقد اختفى ابني؟ البائع قد تبخّر من أمامي. هذا الشرطي ابتلعته الأرض..

بدأتُ أشعر بالخوف ينتشر بين رُوَّاد المول بأكمله.الجميع يختفي. مَنْ بداخل المتاجر ومن خارجها. البائعون، والزُّوار على حدٍّ سواء يختفون فجأة دون أي أثرٍ، يتركون متعلقاتهم وما يحملون.

بدأ الذعر يجتاح المكان، وينتشر بين أحاديث المارة، الكل مُترقِّبٌ، ومُتوجِّسٌ.

فجأةً صرخت امرأةٌ، وهي تركض متلهفة تحمل أطفالها بين يديها:

- من سيبقى في هذا المكان سوف يختفي، ويموت.

وأصبحت تلك الكلمات المذعورة شرارة الوقود التي أشعلت الرعب بين الجميع الكل يركض هربًا ليخرج خارج المول. الجميع يريد أن يهرب هو وعائلته أولًا. ظل الكل يتصارع على من له أولوية الهبوط بالمصاعد، والركض على السلالم. فبدأ الرجال في العِراك فيما بينهم، وسادت الفوضى.

أصوات الصراخ والعراك تعلو مع أصوات تهشُّم زجاج المتاجر والمحلات. فبعض الصبية واللصوص استغلوا حالة الفوضى والهلع، وأخذوا يسرقون ما بداخل المحلات، وهناك أناس عاديون.. عاديون للغاية عندما وجدو هؤلاء يسرقون بدؤوا يسرقون هم أيضًا. سادت الفوضى أكثر، وساد الرعب أكثر الجميع يختفي، ولا تعلم لماذا. الجميع يهرب فزعًا ولا تعلم لماذا. الجميع يتعارك ويتقاتل ولا تعلم لماذا. سَلْبٌ وحرق للمتاجر وللبضائع ولا تعلم لماذا.

غُلّف المكان بأجواء الجحيم. الأطفال تتساقط على الأرض تدهسهم أرجل الهاربين بقوة، وبدون وعي أو اهتمام، أصوات أجراس الحريق تدقُّ بعنف وقوة لتزيد الموقف رعبًا وذعرًا. أنا لم أستطع مقاومة شعور الخوف هذا. لقد انتقل إليَّ من جميع مَن ما حولي. لم أكن اعلم أن الخوف ينتقل إلى البشر كما ينتقل البرد

بسرعةٍ هكذا. أمتصُّ بسلاسة شديدة كل صرخة أسمعها وكل فزع يرتسم على وجوه الهاربين حولي يتغلغل داخلي ويهزُّ كِياني. أنا أصبحت ميتًا من الخوف. فتحولت مثلهم عضوًا في قطيع الفزع. أركضُ أينما يركضوا دون أن أعلم إلى أين أركض. أصرخ مثلما يصرخون دون أن أعلم لماذا أصرخ. لقد شعرت بأجساد ناعمة أسفل قدمي دهستها بقوة أثناء هروبي، ولكني لم أشعر بأي ذنب أو اكتراث. لأني بكل بساطة لم أكن أفكر نهائيًا في تلك اللحظة.

لا أعلم ماذا أفعل. جسدي لا أتحكم به على الإطلاق. بل ما يتحكم به هذا القطيع الذي أركض معه يركضون لليمين فأركض معهم، يركضون لليسار فأذهب معهم.

حتى لو كانوا سيذهبون إلى الجحيم فسوف أذهب معهم، ولكني وجدتُ نفسي بالنهاية خارج المول في أحد الشوارع، ورأيتُ أحد الأشخاص يركب سيارته مُرتاعًا وبدون وعي مني توجَّهت إليه في الحال، ودلفتُ إلى داخل سيارتِه بدون أي استئذان.

نظر إلى صاحب السيارة سريعًا، ولكنه لم يعبأ بوجودي بل كان كل همه أن يذهب بعيدًا عن هذا الجحيم الذي يحدث الآن. شاهدت عند انطلاق السيارة الناس وهم يركضون خارج المول بأعداد كبيرة جدًّا، يبدون كأمواج غاضبة لموجة تسونامي عملاقة يصطدمون بأي شيء أمامهم فيكتسحونه في ثوانٍ. حتى السيارة التي كنت أركبها

وعلى الرغم من أن السائق كان يضغط على البنزين تحت قدميه بأقصى قوة، وينطلق بأقصى سرعة، ولكن هذا لم يمنع طوفان البشر هؤلاء من أن يصطدموا بنا، وسائق السيارة لم يمنع نفسه من أن يصطدم بهم وأخذ يطرح العديد من الأشخاص بمقدمة سيارته بسرعة وبعنف.

لم أستطع أن أتابع تلك المشاهد، ومناظر الدماء المتناثرة فأغلقت عيني فترةً طويلة. فترة طويلة للغاية. لقد عدتُ إلى المنزل.

لا أعلم كيف أو متى عدت. لقد عاد إليّ وعيي الآن، وأنا جالس أمام جهاز الحاسب أتابع صفحات التواصل الاجتماعي في صباح اليوم التالي. لقد تذكرتُ أني لم أتصل بأحمد لكي أطمئن عليه، ولكني لست في حالة الآن تسمح لي الآن بالاطمئنان على أحد.

أنا الآن في منزلي في غرفتي. أمام حاسوبي. تلك هي المنطقة الآمنة لي. التي لا أشعر بالراحة والهدوء إلا بها بدأتُ أُشاهد بعض اللقطات التي صُوِّرت من داخل المول للناس وهي تركض برعب. الآن بعد أن هدأت، وعاد إليّ رشدي قد اكتشف ماذا حدث هناك. لقد حدثت موجة جديدة لاختفاء البشر في يوم الخميس أمس. مثل الخميس السابق ولكن هذه المرة كانت موجة الاختفاء كبيرة للغاية. فالولايات المتحدة والصين واليابان وكوريا وروسيا وعدة دول كبرى صرحت أن موجة الاختفاء هذه ضربت كل العالم، وتم تقدير من تم اختفاؤهم

في يوم الخميس هذا ما يقارب من 20 ألف شخص. عشرون ألف شخص اختفوا جميعهم في يوم واحد، ومن كل دولة من دول العالم، وبحسبة صغيرة لو اختفى 20 ألف شخص من 120 دولة إذا عدد الأشخاص الذين اختفوا في ذلك اليوم يقارب 2400.000 إنسان.

نعم كما عددت كل تلك الأرقام. هذا العدد قد اختفى من أنحاء العالم بدون أي سبب، وبدون أي معلومة، وبدون أي أثر. تملّكني الخوف بشدة أن يكون هذا مرض جديد يُصاب به البشر فيجعلهم يختفون. أنا أعلم أنه ليس هناك مرض يجعل المرضى يختفون. ما هذا المرض الذي سيجعل المرضى يختفون يوم الخميس؟ أنا أعلم أني لا أفكّرُ بمنطقية، ولكن أي منطقية تلك في هذه الأحداث التي حدثت.

مرّت عدة أيام بعد ذلك توقفت بها عن الخروج من المنزل كُلّيَّةً. حاولت الاتصال بمراد كثيرًا، ولكن دون جدوى كنت أسمع هاتفه يرن دون مجيب.

ظللت على تلك الحال لما يقارب الأسبوعين لا أخرج من المنزل فقط أُتابع ما يحدث في العالم من الخارج عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي، ومحطات التلفاز. العالم عاش في فوضى كبيرة تلك الأيام وزادت المشكلات والصراعات في كل مكان، وأنا اكتفيتُ بمراقبة تلك الفوضى، وهي تحدث من بعيد. من داخل مكاني المقدس أمام حاسوبي، وعلى أريكتي، وظلّت الأمور هكذا حتى أتى يوم الخميس

24 من سبتمبر. آخر خميس في ذلك الشهر. في ذلك اليوم بالذات كانت فكرة خروجي من منزلي فكرة مستحيلة. لأن جميع عمليات الاختفاء كانت تحدث كل خميس، وقد تكرّرت ثلاث مرات حتى الآن، وهذا اليوم بالتأكيد سوف يتم فيه الموجة الرابعة من موجات الاختفاء تلك. جلست مُتحفزًا على أريكتي أُتابع من أمام الحاسب بعض القنوات الخاصة التي كانت تجوب الشوارع في أنحاء العالم لكي تنقل أي حوادث اختفاء تحدث على الهواء مباشرة، وأنا مثل الملايين غيري نتابع هذا الحدث، ونحن منتظرون على أحرٍّ من الجمر. صحيح نحزن عندما نرى مشاهد دموع المختفين، وآلامهم، ولكن نشعر بالراحة من داخلنا بأن تلك الأحداث المؤسفة لم تحدث لنا.

ظللتُ أُتابع بث القنوات، ومحلليها الحمقى على مَضضٍ مدة ثلاث ساعات متواصلة، ولم يحدث شيء. قطع حالة الملل التي أُصبت بها تلك رنين هاتفي الذي لم أسمع رنينه منذ فترة طويلة. فأمسكته بفضول شديد قد ازداد أضعافًا عندما رأيت اسم أحمد عماد صديقي على شاشته. لقد اتصل بي أخيرًا بعد أن افترقنا منذ أسبوعين، فرددتُ عليه في الحال، وأنا سعيد للغاية ليقاطعِ حديثي كالعادة بصوتِه الحادِّ:

– لقد علمتُ كل شيءٍ يا ماجد.. لقد علمتُ كل شيء..

لقد تتبعتُهم.. لقد علمتُ ماذا حدث لأسماء زوجتي، ولباقي مَن اختفوا مثلها.. سوف أذهبُ إلى زوجتي أسماء لأستعيدها، ولكن

سوف أعطيك أولًا ظرفًا أشرح لك فيه جميع ما حدث معي، وحلًّا لجميع الألغاز والأحداث التي حدثت وحيرتنا جميعًا.. سوف أنتظرك بعد ساعة في المقهى الذي نجلس عليه في ميدان التحرير، ولكن لا تخبر أحدًا بلقائنا أنت الوحيد الذي أستطيع أن أأتمنه على هذا السِّر يا ماجد. يجب أن يعلم الجميع ماذا يحدث. سوف أترك لك هذا الأمر لتعرضه للعالم أجمع. إني أنتظرك.

ثم أغلقَ الهاتف في الحال دون أن يُتيحُ لي الفرصة لأسأله سؤالًا من آلاف الأسئلة التي كنتُ سأطرحها عليه. ألقيتُ الهاتف بجواري على الأريكة، وأنا أفكِّر:

هل استطاع أحمد فعلًا أن يصل إلى حَلٍّ للغز الذي عجزت عن كشفه أعظم العقول في العالم؟ هل استطاع أن يعلم مكان زوجته بالفعل؟ أين اختفى كل هذه المدة؟ ولماذا لم يقم بالاتصال بي إلا الآن؟

تراكمت الأسئلة بداخل رأسي، وازداد فضولي مع كل دقيقة تمر.

أنظر إلى باب المترل مترددًا. هل أخرج لأقابل أحمد في الخارج في وسط حالات الاختفاء هذه؟ هل أقبل بتلك المخاطرة؟ إن الفضول يكاد يقتلني؟ ولكن الخوف.. الخوف من أن أختفي أنا أيضًا إذا خرجتُ، ولكن على مَن أنا أضحك. فبالفعل هناك الآلاف قد اختفوا من داخل منازلهم ومن وسط عائلاهم. إذًا ليس هناك من ضامن ألَّا أختفي سواء أكنت بالداخل أم بخارج المترل. هذا ما دفعي فضولي

لأن أقوله لكي أتخلّى عن حذري، وبالنهاية انتصر فضولي على خوفي، وتوجَّهت إلى المقهى الذي نجلس عليه دائمًا في ميدان التحرير،ولكم شعرت بالدهشة والحيرة عندما وجدت المقهى يكتظُّ برُوَّاده وميدان التحرير ممتلئًا بالمارة والزُّوار.

ما هذا؟ إن الناس غير خائفين بالمرة وأكاد أجزم أنهم غير عابئين أصلًا بما يحدث لهم.

شعرتُ بالاطمئنان بوجودي في وسط هذا الجمع، وظللت أراقب حركة المارة بالشارع وهم يتفادون السيارات المسرعة بكل مهارة، وبعض القنوات الفضائية لم تجد ما تبثه غير الحديث مع بعض المارة وسائقي السيارات وظللت هكذا مدة ساعة، وأنا مبتسم سعيدًا أحاول أن استشعر من جديد حالة الملل والرتابة التي كنا نعيش بها، ولم نكن ندري قيمتها من قبل.

اقتربت الساعة من الثالثة عصرًا، ولم يتصل بي أحمد أو يظهر، فبدأ القلق يُراودني، وهممتُ بالاتصال به لأجده يتصل بي أخيرًا، فرددتُ عليه في الحال، وسألته بفضول:

- أحمد، أين أنت الآن؟ أنا منتظرك منذ وقت طويل في المقهى كما اتفقنا.

جاوبني أحمد بنبرة حزينة:

- لن أستطع أن أراك مرة أخرى يا ماجد.إن هذا هو الوداع، ولكن قبل أن أرحل سوف أترك لك الظرف الذي أشرح لك فيه ما حدث. سوف أتركه لك مع هاتفي. تركت الظرف والهاتف معهم.

شعرت بالقلق من حديثه يجتاح قلبي فصرخت به:

- لِمَ تقول هذا الكلام يا صديقي؟ فلتخبرني في الحال أين أنت الآن؟

جاوب بكلمات غامضة:

- انظر إلى أعلى.. انظر إلى السماء.

ثم أغلق الهاتف. شعرتُ بالاندهاش مما قاله أحمد، فوضعت الهاتف في جيبي، ونظرت إلى أعلى كما قال. نظرتُ إلى السماء. وتعلّق نظري بما رأيت فترة طويلة جعلت من حولي ينظرون إلى أعلى لكي يشاهدوا ما أشاهد. ليروا معي أغرب شيءٍ قد تراه في حياتك كلها. لا أدري كيف أصفُ لك ما رأيناه، ولكني سأحاول. لقد رأينا أشياء سوداء في السماء. الآلاف من تلك الأشياء السوداء. على ارتفاع كبير للغاية لدرجة أن حجبت أشعة الشمس من الظهور لحظات. أحجامهم مختلفة. تبدو كالصلبان. لا ليست صلبانًا. إنها أشياء ليست صلبة. له أحجام مختلفة، بعضها كبير، وبعضها صغير. تبدو أقرب إلى أشكال الطائرات الورقية، ولكنها ليست طائرات إنها تهبط من السماء بسرعة كبيرة، وبدأت تتضح لنا الآن. أشياء سوداء لها 4

أطراف. تلك الأشياء تبدأ تكبر أكثر وأكثر. إنها تتضح أكثر، وأكثر الآن. لقد اتضحت لي الرؤية الآن. أنا أراها بكل وضوح، ولكن ذلك ليس معقولًا.

ماذا؟ هل يُعقل؟ لحظات قليلة، وسقطت بعض تلك الأشياء على أتوبيس كبير بجوارنا،وحدثت صدمة كبيرة بداخل الأتوبيس فحطّمت السقف، وسقطت وسط الركاب بالداخل. فجفل السائق ممًا حدث، وصعدَ بالأتوبيس فوق أحد أرصفة الشارع. ركض رُوَّاد المقهى بكل سرعة ليروا ماذا حدث وماهية هذا الشيء الذي سقط منذ قليل. وأنا أيضًا ركضتُ معهم بدافع الفضول أو بسياسة القطيع لست أدري، ولكني ذهبتُ أنا أيضًا، وتطلّعت إلى الأتوبيس، ونظرت إلى ما يحدث بداخله، وها هي قد تحقّقت شكوكي، فالذي كان ساقطًا من سقف الأتوبيس جسد بشريٌّ لامرأةٍ..

نعم امرأة بدينة محجبة ترتدي عباءةً سوداء، مُلقاة على أرضية الأتوبيس، والرُّكاب يقفزُون صارخين من حولها في خوفٍ وفزعٍ. وبجوار الأتوبيس على بعد عدة أمتار 3 أجساد لأشخاص آخرين ملقاة على سور أحد المباني وعلى أرصفتها.

إذًا ما كان يسقط من السماء الآن هم بشر. نظرتُ مصدومًا إلى السماء مرة أخرى، وكانت صدمتي شديدة، ففي تلك اللحظة اقتربت من رأسنا آلاف الأجساد المتساقطة من السماء وعلى امتداد

بصري. ظللتُ مصدومًا مشدوهًا لم أستطع أن أتحدَّث أو أصدر أيَّ صوتٍ إلى أن وجدت الرجل الذي بجواري قد سقط فوق رأسه جسدُ فتاة فحطمته أسفلها في الحال. ثم رجل يسقط فوق سيارة بجواري فحطَّم سقفها بالكامل.

ثم وجدت 4 فتيات يسقطن أمامي على الأرض فجأة. هالني هذا المشهد بشدة، وجعلني أنظر إلى أعلى مرة أخرى. فوجدتُ جسدين لرجلين يسقطان فوقي فقفزت في الحال من مكاني فتعثرت في أحد الأجساد المُلقاة على الأرض فسقطتُ على الأرض بجوارها.

عندما بدأ الناس يدركون ماذا يحدث لهم بدؤوا يركضون وهم يصرخون خوفًا من أمطار الأجساد البشرية التي تسقط فوق رؤوسهم. الأجساد في كل مكان. تسقط على المباني وعلى السيارات وعلى البشر.

أصداء دويِّ ارتطام الأجساد بالأرض أشبه بدوي سقوط القنابل. تخيل ميدان التحرير في الساعة الثالثة عصرًا وقت خروج الطلبة والموظفين وسيارات الأجرة والملاكي وجميع السكان الموجودين بالمنازل والمقاهي يركضون خائفين في جميع الأنحاء، بينما تتساقط فوق رؤوسهم الآلاف من الأمطار البشرية.

كنتُ أشعر بأني في خضم حرب تحدث. فبعض أسقف المنازل والشرفات قد تحطمت بجواري وتمازجت أصوات الصراخ والركض

ودوي سقوط الأجسام الضخم ليصدر صوتًا يُشبه صوت نفير البوق. ظللتُ أُفكّر للحظاتٍ أن هذا هو يوم القيامة. الجميع يركض في اتجاهات مختلفة يصطدمون ببعضهم البعض. يفتكون بمن في طريقهم، يطلبون النجاة. وحين يظنون أنهم نالوها تسقط فوقهم الأجساد البشرية لتحطم أعناقهم في الحال. لم أدرِ ما كنت أفعل. كل ما شعرتُ به في حينها أني كنتُ أركض. أركض في الميدان ذهابًا وإيابًا. أركض في فزعٍ لا أهتدي سبيلًا.

فجأةً شعرت بشيءٍ كدانة المدفع تسقط على كتفي اليُسرى شعرتُ في الحال بأن يدي اليسرى قد بترت من جسدي. نظرتُ سريعًا إلى ما حدثَ فوجدتُ شابًّا صغيرًا في عمر 15 عامًا قد سقط من السماء،وأثناء هبوطه قد لامست قدمه كتفي اليسرى فحطمتها.. فما بالك لو سقط فوق رأسي؟!

الألم. الصدمة. الفزع. الجنون. أُشاهد ذلك جميعًا. أشعر بها جميعًا. فلم أتمالك نفسي، وسقطت على الأرض غائبًا عن الوعي..

لا أدري كم مكثتُ غائبًا عن الوعي، ولكني قد استيقظتُ بعد أن شعرت بشيءٍ ثقيل يركض على جسدي. فقفزت واقفًا في مكاني في الحال لأجد كل شيءٍ قد انتهى. لا أدري كيف أصف المشهد الذي أراه الآن أمامي، ولكن سأحاول أن أُقرِّبه لك. تخيَّل أنك واقفٌ في وسط ميدان التحرير وعلى مدى بصرك الآلاف من البشر راقدين

على الأرض سائحين في دمائهم بعض البقايا والأشلاء حولك متناثرة. السيارات محطمة وبعضها محترق. البنايات مُهدَّمة والدماء تغلف حوائطها البيضاء. أتوبيس كامل محطم بداخل مقهى وأسفل منه بعض المقاعد بالجالسين عليها المئات من البشر يمشون في الميدان وهم يتألمون يمسكون أنحاء من أجسادهم المصابة بأيديهم والدماء تملأ ملابسهم. بعض الأجساد فوق أسلاك الكهرباء والهاتف وفوق أعمدة الإنارة. مشهد سريالي مرسوم من قلب الجحيم..

هذا بعض ما استطاع عقلي الاحتفاظ به من داخل المشهد في حينها، ولكن صدقني كان الوضع مُروِّعًا أكثر من ذلك بكثير.

حاولت أن أتحرك فوق هذه الأجساد المتكدسة فلم أستطع سوى أن أعبر من فوقها إلى جهة أحد الأرصفة، وسرعان ما جلستُ عليه، ولا أعلم لماذا قمتُ بتحسُّس هاتفي من جيبي. فتذكّرت مكالمة أحمد.

إنه كان يعلم أن ذلك سوف يحدث. هل يُعقل أن تلك الأجساد كانت أجساد الذين اختفوا من قبل؟..

أخرجت هاتفي في الحال، وأنا أنوي الاتصال بأحمد فهو الذي يعلم حَلَّ ذلك اللغز بأكمله. وجدت شاشة الهاتف محطمةً، ولكن ما زال الهاتف يعمل، ضغطت على زر مُعاودة الاتصال على أحمد، ظل الهاتف يرنُّ بدون مجيب. لقد تذكرت أنه قال لي سوف أترك الهاتف والظرف معهم. هل كان يقصد هؤلاء الأشخاص؟ هل هاتفه مع أحد

هذه الأجساد؟ وبدأتُ أتصل بهاتفه، وأنا ألف في أنحاء الميدان وسط هذه الأجساد أبحث عن الهاتف. بدأت بعض جموع الناس تتجمع من جديد وتحاول مساعدة المصابين وتزيل الحطام والأجساد المُلقاة، والشرطة ظهرت وعربات الإسعاف وبدؤوا يساعدون الناجين، وأنا أشاهد كل ذلك بدون أن اكترث بالدماء التي تغطي قدمي وتخرج من حذائي.

أو من يدي اليسرى التي لا أستطيع تحريكها. ظللتُ ألفّ بين الأجساد فترةً طويلة من الزمن حتى ظهرت لي رسالة: البطارية منخفضة من الهاتف. فعلمت أن أمل العثور على أحمد أو الهاتف والظرف كان أملًا زائفًا، ولكني فجأة سمعت صوت هاتف يرنُّ من بعيد، فأخذتُ أقتربُ، وأنا أحاول أن أتفادى الأجساد أمامي حتى وجدت الصوت يظهر من جسد، شخصًا بالقرب مني فتوجهتُ إليه، ونظرتُ إليه جيدًا لكني لم أجده أحمد. أخرجت الهاتف من ملابسه فوجدت اسمي يومض على الشاشة. إذًا إنه هاتف أحمد بالفعل. ظللتُ أُقلّبُ في الأجساد بجوار هذا الشخص حتى أجد أحمد فلم أجده. فعدت مرة أخرى إلى جسد الرجل، وقلّبت ملابسه، فلم أجد له بطاقة أو أي بيانات تدلّني على اسمه أو على مكان وجود أحمد، ولكن وجدت الظرف مغموسًا بالدماء. فأمسكتُه باهتمام لأجد مكتوبًا عليه بعض كلمات "إلى صديقي ماجد".

ففتحت الظرف في الحال فوجدت بداخله ثلاث صفحات من الورق الكبير، أخذت ألتهم بسرعةٍ ما بين سطوره من كلمات. لأطلع على ما فعله أحمد خلال تلك الأيام السابقة وسر هذه الاختفاءات الغامضة. وحل جميع الأسرار والغموض. السر وراء هذا الأمر بأكمله.

– أكملْ. أكملْ يا سيد ماجد.

قالها الضابط لي، وعيناه يملؤهما الفُضول الشديد هو، والشاب الذي بجواره، وهو يدوّن كل حديثي باهتمام شديد. لكني...

لكني في تلك اللحظة أشعرُ بالخمول يدبُّ في جسدي. أشعر بالكسل يجتاح أطرافي. جفوني. جفوني ثقيلة للغاية. تريد أن تُغلق رغمًا عني. لماذا؟ لماذا؟ لماذا يحدث لي هذا؟ إني أشعر بالنُّعاس بشدة. رغم أن النوم جافاني أيامًا كثيرة. هل هذا لأني بُحْتُ بجزء من السِّر الذي كُنتُ أحمله بين طياتي. لا. لن أستطيع أن أُقاوِمَ. عيناي أُغلقتا. الهدوء يجتاح جسدي.

السكينة تتملكني. إن النوم رائع. رائع بشدة. أسمع صوت الضابط، وهو ينادي على الممرضة لتجعلني أستيقظ مرةً أخرى لأُتابع حديثي، ولكن هيهات. فأنا أحاول أن أنام منذ أيام ولم أستطع. وها قد جاءني أخيرًا. لا تقلق سوف أحكي لك عن قصة هؤلاء بالتفصيل.

سوف أذكر لك ما الأسرار التي خلف..

"الذين سقطوا من السماء"، ولكن ليس الآن.

فإني مُتعب.

متعب.

متعـ. ب. خ.خ.خ..

إسلام عبد الله

عاهِرةُ المَعْبَد

(الساعاتُ الأخيرةُ في حياةِ الرَّاهبات)



- مريم يجب أن تخبريني الآن، ماذا حدث؟!

- الراهبات قُتلن جميعًا.

- أعلم، ولكن أي سطو يمكنه قتل تسع سيدات قبل أن تطلق أحداهنَّ صرخة استغاثة؟!

- أنت تعلم أن المكان بعيد.. كما أن كل شيء حدث بسرعة شديدة.

- هل يمكن أن تحكي لي ما حدث بالتفصيل.

- حسنًا.

***

قبل ذلك عدة ساعات

كانت مريم تجلس أمام صورة العذراء داخل الدير المنعزل بعيدًا عن أي حياة بشرية عدا تجمُّعها الصغير مع الأخوات الأخريات.

طرقت كريستينا الباب ثلاث مرات متتالية قبل أن تفتح برفقٍ، رمقت تضرُّع لميس أمام الصورة. فحاولت الانسحاب في صمتٍ، ولكن لميس منعت ذلك بكلماتها:

– لا ترحلي. أنا انتهيتُ بالفعل.

ابتسمت كريستينا، وشرعت في الدخول، وجلست على الفراش في نهاية الغرفة، كان يبرز عليها ملامح الفضول، ملامح الصمت المتواري خلفه عشرات الأسئلة، فلم تنس كلتاهما كم الزيارات التي ألحقت بهم في الدير في الآونة الأخيرة وغضب جميع الأخوات من

هؤلاء الفضوليين القادمين من كل حدبٍ وصوب متحدثين عن الجان، والشياطين، وغيرهم من الكائنات الغريبة المُتطفلة من عوالم أخرى.

- لا تخجلي يا كريستينا، وقولي ما لديكِ.

تردّدت قليلًا في البداية، ولكن انتهى بها الحال متكلمة أخيرًا:

- الأخوات غاضبات كثيرًا.

أومأت مريم في تفهُّمٍ، وبعدها أردفت كريستينا:

- هن يخشين تاريخك في بلاد المغرب، بعضهم يراكِ ساحرة!

ضحكت مريم بهدوء، وردّت:

- ماذا لو علمن تاريخي في القديم، وعلموا عن حياتي الأبدية، وعن مخطوطات موسى السامري ذلك الكنز المُختبيء تحت حراستهنَّ، وبين أيديهنَّ دون أن يعلمن بذلك؟!

بلهجة حادة قالت كريستينا:

- إياكِ ان تخبريهنَّ بذلك، لو علمن لتم طردُك حالًا يا أختاه.

باستنكار قالت مريم:

- لماذا كل ذلك الذُّعر؟! نحن هنا في حماية الربِّ. هؤلاء الفتيات ضعاف الإيمان كثيرًا، على أي حالٍ انتهى كل شيء، ولعنة الساحر الفارسي، والمارد الخاص به انتهت.. أظنُّ!

تساءلت كريستينا في حيرة:

– مريم، أكان الساحر ابن بوران الفارسي هو أعظم أعدائك؟!

صمتت مريم لحظات تفكر في الأمر قبل أن تُجيب:

– حينما سقطِ الساحر الفارسي قديمًا ظننتُ أنني لن أقابل أعظم منه أو مثله على أقل تقدير.

علمت كريستينا أن هناك الأخطر، وأن الراهبة مريم تخشى الحديث عنه.

– ولكن؟!

تنهَّدت مريم، وقالت بصعوبةٍ كأنها تُزيل عن عاتقها سِرًّا حملته قرونًا عِدة.

– لكن كان هناك الأخطر منه، وفي نظري أنه كان أخطر من موسى السامري نفسه.

في تلك اللحظة شرد ذهن مريم لحظاتٍ سابحةً نحو الماضي تتذكر ذلك الوتد التي قُيدت فيه، والنيران حولها تشارف على التهامها، وكل الناس المتجمهرين ينظرون لها في عجزٍ، والدموع تنسال من عيون أغلبهم، كانت مريم في أشدِّ لحظات السُخط عليهم حينذاك، كانت تلعنهم داخلها لأنهم سمحوا لذلك الغريب أن يُحدِث الوقيعة بينهم، وانتهى بها المطاف بتلك الحالة المرثي لها.

– مريم؟! أأنتِ بخير؟!

أومأت مريم، وكريستينا ما زالت تنتظر المزيد من التفاصيل عن تلك الحقبة في تاريخ الكاهنة، ولكن مريم تجاهلت ذلك، فتلك التفاصيل كانت شديدة التعقيد على أن تتقبلها أو تسمعها كريستينا، كما أن مريم نفسها ما زالت لا تتعلم خلفية تلك الأحداث!

كادت كريستينا تسأل مريم مجددًا عن التفاصيل، ولكن صوت الصرخات بالخارج كان شيئًا ما، فزعت على إثره كريستينا بينما بدون تفكير تحركت مريم لترى ما يحدث في الخارج حينما فتحت مريم الباب دهست جسد إحدى الراهبات دون قصد، فحينما انتبهت كانت الراهبة بلا رأسٍ وبِركة صغيرة من الدماء تحيط بها، تحمّلت مريم الأمر بهدوء، تعالت صيحة أخرى من ناحية الدير، فتراجعت نحو غرفتها مجددًا وجدت كريستينا أمام صورة العذراء تبكي بحرقة، وهي ترسم الصليب على صدرها طالبة السماح والأمان.

– ابحثي لنفسك عن مخبأ حالًا.

تجاهلت كريستينا الحديث، وظلّت على وضعها، وهي تهذي بكلام صار غير مفهوم، فاندفعت مريم نحوها، وجذبت يدها بقوة، وقالت بلهجة حادة:

– ما يوجد في الخارج ليس بالأمر البسيط.

ظلت كريستينا صامتة بينما أضافت مريم:

- اختبئي حالًا!

لم تنتظر مريم ردًّا هذه المرة، وانسحبت من الغرفة سريعًا بعدما سحبت أحد الخناجر من درج الكامود المجاور لفراشها لتحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه في تلك اللحظات، كانت الصرخات في كل مكان ومريم تتجه نحوها هذه المرة، صارت تأخذها الأصوات من مكان للآخر في الدير حتى حددت بالضبط مكان الصرخات، وحينما اقتربت لتراقب المشهد عن قُرب، كان ملثم أمامها يضع خنجره في صدر إحدى الراهبات ليصمتها إلى الأبد، ثم اعتدل في وقفته وأخذ شهيقًا طويلًا وهمس:

- عاهرة معبد آمون.

أخذ يقترب أكثر منها، وهو يحكم قبضته على خنجره، خلف ظهرها مريم تمسك خنجرها هي الأخرى، والفضول يأكلها عن هوية ذلك المُلثم الذي واضح أنه يعلم عنها الكثير، حينما وصل أمامه أمسكها بقوة من عُنقها ورفعها بضع سنتميترات عن الأرض، فأخذت تتعذب في نيل بعد الهواء داخل رئتيها، ولكنها نجحت في النهاية في طعنه في كتفه بخنجرها، فصرخ، وألقى بها ناحية الحائط، وأخذ يتألم بضع لحظات وقال بلغةٍ فارسيةٍ قديمةٍ:

- لم تتغيري قط، ما زالتِ مُخادعة كما أنتِ. لا أمان للعاهرات أبدًا.

رَفعَ رأسه إلى أعلى، ونظر في حدقتيها، وقال باللغة نفسها:

- أتتذكرين الماضي والنيران تحيط بكِ من كل حدبٍ وصوب؟!، يومها أخبرتك أنني لستُ مثل الآخرين عزيزتي. دفعتِ الكثير من حياتك مقابل هذا الشعب والكهنة وفي النهاية كانوا يشاهدونكِ تحترقين متلذذين بصوت صراختك. ولكنني لا أُدرك حتى الآن كيف نجوتِ منها؟!

كانت مريم ما زالت تتألم بصمتٍ وهي تمسك برقبتها، ولكنها تجاهلت الألم قليلًا وركزت في كلماتِه وصار عقلها يردد عباراته مرة تلو مرة وهي غير مصدقة أن يكون ذلك صحيحًا:

- أخناسيس. ولكن كيف؟!

أجابها الملثم:

- تفاصيل كثيرة يا عزيزتي. ذلك اللقاء لن يكن الأخير!

صرخت مريم للمرة الأولى منذ قرون عدة ذعرًا وخوفًا، حاولت العَدْوَ نحو الخارج، ولكنه أوقفها ولكمَها بقوةٍ شديدة على وجهها فصرخت مرةً أخرى، قالت بخوفٍ شديد:

- أخناسيس.. أرجوك.

ضحك بهدوء قائلًا.

– لا تقلقي عزيزتي، لن أقتلك أبدًا. ليس قبل أن تري الكثير من الألم، منحتك فرصة غالية لتكونِي أميرة ولكنك قبلتِ بكونك مجرد عاهرة للكهنة، وخادمة لذلك الشعب. كنتُ أبحث دائمًا عن المخطوطات، ولكنني علمتُ اليوم أنها لديك أنتِ!

قالت بتوسُّلٍ:

– تلك المخطوطات خطيرة، توقَّف أرجوك!.

ولكنه لم يسمعها وألقى بخنجره في الهواء وأمسك به من ناحية نصله وضربها بقوة على رأسها من مقبضه، فسقطت عاهرة المعبد مغشيًّا عليها.

**

– أنت أبدية؟!، وأخناسيس قتل الراهبات؟! وهذا أظنه ساحرًا أيضًا قادمًا لنا من التاريخ كالآخر ابن بوران الفارسي أظن! قصة لطيفة حقًّا يا عاهرة المعبد.

– هذه هي الحقيقة!

– ولكن كريستينا قالت حديثًا عكس ذلك.

– كريستينا؟!.

– نعم، واضح أنكِ لم تذكري نحر عنقها كالأخريات!

- ماذا أخبرتَك؟!

- أخبرتني،أنكِ قتلتِ الجميع. أنكِ أخذتِ تصرخين بقوة، وتتهمين نفسك بالعاهرة.

- هذا كذب. لماذا تكذب؟ أنا لا أفهم شيئًا؟!

نظر الضابط لها بشفقةٍ وهبَّ مُغادرًا المكان.

أحمد شوقي مبارك



الـــرَّاحِـــل



لمعت دمعات الصبي حين أشعل أبوه مصباحًا أنار الخَندق، أشعله بخوفٍ منصتًا إلى هرولة الخيل فوقه وصيحات الجنود المُبتعدة، هدأت الأصوات من فوقهم، واختفى وطء الحوافر، فعاد الصبي يبكي مُستجديًا الطعام، علا البكاء إلى نحيبٍ فوثب إليه أبوه ليُعاجله بلطمة تُشبعه قبل أن ينتبه الموت أعلاهُما، كانت لتهبط اللطمة على الصبي المسكين لولا يدٌ هزيلة استوقفته مُهدئةً، نظر الرجل بإجلالٍ للكهل الذي منعه قائلًا:

– مولاي فريد الدين، إن لم يصمت سيتسبب بقتلنا جميعًا.

– إنه فتًى صغير ولم يشبع بعد، سيبكي حتى وإن ضربته بِمطرقة!

ابتسم الرجل مُفسحًا الطريق بين فريد الدين والصبي، ركع الشيخ المهيب أمامه ثم خلع عِمامته ليظهر فوق رأسه رغيفُ خبز وبعضُ الأعشاب الجافة، ضحك الصبي فبادره الشيخ ببسمة أبرزت

أخاديدَ وجهه العاجي، أصدر الفتى همهماتٍ من فمه الممتلئ وهو يأكل:

– حين أكبُر، أريد أن أصبح عطارًا مثلك، لأعلم أي الأعشاب تُأكل وأيها حلو المذاق.

ضحك فريد الدين قائلًا:

– المرء لا ينسى العطارة، ما إن تعلمها، لكني لم أعد كذلك يا بُني، حتى وإن اعتادوا مُناداتي بالعطار.

– إذًا ماذا أصبحت بعد أن تركتَ مِهنتك؟ أتركتَ العمل؟

صرخاتُ استعطافٍ دوَّت فوقهم لتقتل الحديث، أحدهم تأخّر عن دخول الخندق، فأدرك ميعاد مصرعه. يعلم بعض أهل نيسابور بعضًا، ولا سيما مَن بَقِي حيًّا، سرعان ما سيتفحص الصبي وجوه الباقين ويعلم من فُقِد من أهله وجيرانه، شتت الشيخ الصبي عن معرفة هوية القتيل بإجابته عن سؤاله:

– لا لا يا صديقي، قد أصبحتُ قاصًّا وشاعرًا، أكتبُ القصَص، وأنظمُ الشِّعر، قُم وأمسك بيدي.

نهض الشيخ ممسكًا بيد الصغير، أخذ المصباح ثم جلس متوسطًا الخندق، دقائق وتحلق الباقون حول الشيخ والصغير إذ علموا أنه سيبدأ التلاوة، بسمل الشيخ وشرع يتلو حتى انتهى قائلًا:

- (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا) صدق الله العظيم.

توقّف الشيخ كأنما ذكّرته الآيات بشيءٍ يضمُره إلا أنه لم يعد يقوى على احتماله وحده، توقف الشيخ عن التلاوة واستأنف حديثه قائلًا:

- ما سأقصُّه اليوم ليس كسائر الأيام، قد جاءكم نبأ البحار الذي جاءنا منذ يومين بحثًا عن زوجته وغادر في نهار اليوم، وقد خشي على نفسه أن يخبركم قبل رحيله معها، أنه كان بحارًا لشيرزاد.

صمت الشيخ وهلة ليرى مردود ما قال، احتقنت وجوه الرجال وانفجر البعض يُعاتِبه بصراخٍ كزمجرة نمرٍ جريح:

- كيف تدعه يا مولانا! وهو الذي جعل شيرزاد يُفلت؟!

قد شاركهم فريد الدين الغضب، والحزن ذاته فلم يقوَ على أسر البكاء، جاهد ليخرج الكلمات من حلقه فصمت البقيةُ مُشفقين:

- لا والله لم يُفلت طرفة عين، فقد سمعتُ من البحار ما يُشفي صدري من الذي مكّن الشيطان من دماء أطفالنا، وكما لازم ملك الموت طرف ثوبه حين عاش بيننا، فإنه لم يفارقه حين هرب بعيدًا.

***

البداية..

في ذلك الوقت بدت نيسابور باردة كقلوب حُكّامِها، جامدة كقطب الدائرة. توسط فريد الدين شجرته مختبئًا وراءها من رياح الجبال، يمشي الناس لقضاء حوائجهم بلا مبالاةٍ رغم امتلاء صُدورهم بنسائم الموت، لم يفق أحدهم من توهّمه أن كلَ شيءٍ على ما يُرام إلا حين أتى إليهم السلطان متقهقرًا مهزومًا، يعبر الوالي من أمامهم فيتهافتون عليه، مهندمًا شاربه يمس شفته السفلى حين يعبس وهو دائمًا كذلك، وزُرقة عيناه كسماءِ نيسابور فوقه، يسأله الناس عن أخبار المَدد فيجيب باقتضاب مُطمئنًا، ويصادفه العالمون بالهزائم فيهددهم بعاقبة ترويع الرعية، يُراقِب تدريب الجنود آخر النهار فوق حصانه الأشهب العربيّ، ثم ينتهي يومه بانتهاء نيسابور من شرقها عند شجرة العطار.

- كيف حال السلطان اليوم؟

قالها العطار مُفسحًا للوالي مجلسًا تحت شجرته كعادته نهاية كل يوم، أجاب الوالي:

- بعد أن تقهقر الجيش لنيسابور، وأقام السلطان بيننا سنستعدُّ لهم، لن تجسُر الجيوش على عبور نهر جيحون الآن، سنشحذ قوتنا ونواجههم حين يعبرون.

انزعج فريد الدين فأنهى الحديث قائلًا:

- المهم أن تواجههم يا شيرزاد، قم يا بُني واطمئنَّ على سلطانك، لعله أرادَ شيئًا قبل أن يُعاود الهُروب.

اشتاط شيرزاد غضبًا لكن لم يُنسِه غضبُه مَن يكون العطار، ولم يُنسِه أيضًا مشاركته الرأي ذاته مِن داخله:

- قد كبرتُ يا مولاي، وأصبحت واليًا على نيسابور بأسرها، لم أعد من مُريديك لتسُب السلطان محمد بن خوارزم شاهٍ أمامي.

كان العطّار قد سمع كفايته فخاطبه مديرًا ظهره:

- حضّر نفسك يا شيرزاد، ولا تنتظر شيئًا من سلطانك، الموت آتٍ آتٍ، ولن يمنعه عن الناس شيءٌ سواك.

نفَذ الوالي إلى قلعة نيسابور، تمادى بحصانه عند الجناح السلطاني ليطمئنَّ على حوائجه ثم خلد للنوم بجناحه، رأى وهو يستسلم للنوم ويُودِّع الواقع أجسادًا سوداء تكسوها الحراشف، تُحلق فوق جبال نيسابور بأجنحة مَعقوفة وتتلقّف جثته كما يتلقّف النورس الأسماك.

- قُم.

انتفض مذعورًا ليجد أحدهم يجلس على حافة السرير، ملامحه تركية، وبشعره الذهبي ضربة أخذها من أحد الحراس حين حاولوا منعه، يتفحص سيف شيرزاد ويداه المخضبتان بالدماء تُحيلان تجاويف

نقوشه إلى الأحمر، قام التُركي من أمام شيرزاد واتجه إلى شُرفة القصر، فتبعه الأخير يقوده ذُعره وقد استفاق من كابوس لكابوسٍ آخر، أدار التركي ظهره متأملًا نيسابور من الشرفة وخاطب شيرزاد قائلًا:

– أنت تعلم ما سيحدث، لتلك البيوت وساكنيها.

ثم أشار بسبابته إلى شرفة الجناح السلطاني فوقهم:

– وتعلم أن هذا لن يمنع عنك شيئًا.

– قد استعددتُ لهم، حين يعبــ.

– قد جئتُك بعد أن عبرتُ نهر جيحون مع باقي الجنود اليوم.

شحب وجه شيرازد كأنما اختفت الدماء منه، لم تنقضِ على وصول خوارزم شاه ثلاثة أسابيع وها هم قد عبروا جيحون كأنه نهر رمال، تملّكه الغيظ، فباغت التركي بلكمة أطاحت به قائلًا:

– إذًا أهلًا بك في نيسابور!

ارتمى التركي تحت قدمي شيرزاد وبصق دماءه ضاحكًا:

– وبما يفيد ما ستفعله بي الآن، ستحترق نيسابور لا محالة وأنت معها، وسيهرب محمد بن خوارزم ولن يأبه بنيسابور كما لم يأبه ببُخارى وسمرقند وباقي المُدن.

جلس شيرزاد بجانب التركي وقد لكمته الحقيقة لكمةً كالتي أعطى الأخير إياها، اجترّها التركيُّ من صمتٍ قائلًا:

- قد جئتُ برسالة من هولاكو، يقول إن دللته على أبواب نيسابور وطرقها وأفلت نفسك من ولايتها سيجعلك ترحل أنت ومَن تريد من أهلها، ولمَن لم يُقاوِمْ مِن الباقي السلام، قد وعدك بذلك لأنه يريد أن يُسرع ليلحق بالسلطان حين يعاود الهروب، وإن نفّذ نصف ما وعدك فإن نيسابور ستنجو، وإن لم توافق فلا حاجة لأخبرك ما سيحدثُ.

ثم أراه قطعةً سوداء من الجلد بها ختمٌ ملكيٌّ مُذهَّب:

- سيعلم محمد بن خوارزم خبر قدومنا في الصباح وسيهرب، إن أردتَ أن تُنجي مدينتك احضرْ خارج المدينة ناحية الغرب وقتها ومعك هذا.

وقد كان ما قاله التركي من تتر التُرك، هرب محمد بن خوارزم شاه تاركًا ما تبقّى من دولته لسيف التتر، ولم يكن شيرزاد أكثر اهتمامًا بمدينته من السلطان، أشقُّ ما كان عليه أن القلعة كانت في شرق نيسابور، وذلك يعني أنه سيلقى فريد الدين وهو في طريقه إلى التُركيّ، لم ير الشيخ يومًا متلهفًا ومُتسائلًا كيومها،وهو يُجيبه بطمأنة، والندم يمزقه إربًا، هرول بحصانه تاركًا فريد الدين بحجة تأهُّبه لقيادة الجنود، ثم التف على حصانه لينظر إلى معلمه نظرةً أخيرةً ليرى على وجهه بسمة قتلته حيًّا، قد علم فريد الدين حين قابله يومها، أنه لم يكترث يومًا بنيسابور.

- جئتُ بما طلبت منك؟

سأله التُركيّ عند التل الغربي خارج نيسابور، فأعطاه دلائل طرقها، وقائمة بكبار تجار نيسابور وحرفييها الماهرين، وكان قد ترك درع الوالي في القلعة وأفلت نفسه من المنصب، نفّذ التُركيّ ما وعده وتركه يرحل خُفيةً في الليل بذهبه وحريره وجواريه وخيله، لم يختر من أهل نيسابور أحدًا سوى ابنة أخيه الصغيرة وآخر عائلته زهراء، وإن استطاع أن يهرب بنصف المدينة لفعلها لكن خشيته أن يعلم الناس بهروبه منعته من إنقاذهم، فقد شَقَّ شيرزاد طريقه تجاه بحر الخزر شمالًا وهو يعلم أن مكان قفص أسده الأليف "قسورة" بالسفينة كان ليُنجي كل أطفال نيسابور!

استأجر طاقمًا عند ساحل بحر الخزر ليبحر إلى الشمال متخفيًا كتاجرٍ غني، كان الطاقم فارسيًّا كشيرزاد إلا أن القبطان كان أعجميًّا من بلاد الروس، أمل شيرزاد أن يترفق هولاكو بمدينته لكن سرعان ما أتته الأخبار عن اقتحام نيسابور قبل أن تطأ قدماه سطح السفينة، بنى التتر أهرامات عالية من اللهيب أحدها لجثث الرجال وآخر للنساء وثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا ألا ينجو مخلوق من الموت بارتمائه بين الأشلاء، والجثث! تناسى شيرزاد فناء مدينته بالخمر السلطاني، وأبحر بسفينته في صحرائه الزرقاء المالحة نحو اللاشيء.

***

اليوم الأول..

اشتعلت المياه بأنوارٍ خضراء سببتها أشعة الشمس، كانت زهراء الصغيرة تُلقي بالعجين في الماء لترى الأسماك، تتراقص جدائلها البنية، وتحيلها الشمس إلى القرمزي كساري السفينة النحاسي، هذا الذي استند إليه القبطان مُستظلًّا بالأشرعة فوقه، كان رجلًا خمسينيًّا نحيفًا ترفرف ملابسه على بدنه أمام الرياح، لحيته سوداء خفيفة عند وجنتيه كثيفة عند ذقنه، وتلتمع سنه الذهبية كلما ابتسم، صعد شيرزاد مخمورًا إلى سطح السفينة، يتهادى في سيره كيلا يظهر ترنُّحه أمام البحارة حاملًا دلوًا مُلئ بالدماء:

– لا تُلقي بها!

صاح به القبطان حين حاول أن يتخلص من الدماء بإلقائها في المياه لكن لم تطاوعه يده فانزلق بعضها إلى السفينة، أخذ منه القبطان الدلو ثم تابع قائلًا:

– يجري البحارة طوال الليل، وهم يعملون على السطح، إن تزحلق أحدهم في الدم سيجد نفسه في البحر، ولن يستطع السباحة للسفينة، دم من هذا؟

– لا أحد، كنت أُطعم قسورة، ووضعت اللحم بالدلو.

– أسدٌ أطلسي، في عقده الأول، قد اصطدت مثله قديمًا.

جهد شيرزاد ليكبح الخمر المندفع بأوردته كي ينهي الحديث:

– ليس هناك أسد كشيرزاد في الفتك، فقد قتل أمامي ثلاثة نمور هندية دفعة واحدة، لكنك تعلم الكثير أيها العجوز.

داعب القبطان شيبته ضاحكًا من خطوات شيرزاد المتعرجة حين اتجه شيرزاد إلى غرفته:

– أرى أن الأسد قد أكل ما يكفيه اليوم!

ارتمى شيرزاد فوق السرير كجثة هامدة، ولعبت زهراء بقربه حتى جاوز الوقت الغروب فزارتها ملائكة النوم، وصار شيرزاد كعادته كل ليلة ملك كوابيسٍ تجتاح عقله كالنار في الهشيم، يسمع صوت نمشٍ أظفار في جسد حي يزمجر، وأكياس ذهبه وحريره تفيض بالدماء، ويرى أحصنته تصرخ والبحارة يلتهمونها حيةً، ثم يرى الحراشف والأجنحة المعقوفة تحمله من السفينة نحو جبال نيسابور.

خاضت بعض الغربان معركة مع البحارة المخمورين في الليل حول سمكٍ صادوه، وتعجبوا ساخرين من شراهتها، وكيف أتت وقد ابتعدوا حتى اختفى الشاطئ، وحين قطع ضحكهم أصغرهم قائلًا بأن ذلك نذير شؤم فإن الغربان تتبع الموتى حتى يموتوا، ما زادهم ذلك إلا ضحكًا، وسُخرية منه حتى ألبسوه دلوًا "قسورة" على رأسه!

***

اليوم الثاني..

استيقظ شيرزاد وقت الغروب وخمر البارحة يسحق رأسه فداواه بخمر اليوم ثم صعد إلى السطح، ما زال يسمع أصوات الخمش تعلو بين جنبات السفينة كأنما لم يستفق بعد، صافح القبطان الذي ضحك حين رآه حتى احمرت بشرته الخمرية متعجبًا:

– كيف لم تستيقظ البارحة؟

– ولَمَ استيقظ؟

– حين أتى الليل ظل أسدك ينوح ويزأر كأنما أحد بقر بطنه، ثم ظل يصطدم بالقفص حتى كاد يكسره!

– ربما تسرب إلى الدلو بعض الخمر فأضر معدته أو وجوده في عرض البحر يزعجه، كم تبقّى لنا لنصل؟

– أربع ليالٍ وترى الشاطئ كما تراني.

قطع حديثهما صوت ارتطام بالمياه، جلس البحارة على حافة السفينة، وكل منهم يلقي قطعة جلدٍ ربطت حول سمكة، قرأ القبطان قسمات شيرزاد فأجاب تساؤله:

– إنها نذور مجوسية يفعلها بعض بحارة الفرس منذ أيام كسرى، يرمون بها كي يتقوا شيطان البحار، في بلادي كان يوضَع على أعين الموتى عُملتان ذهبيتان، كإكرامية لمن سيأتي ليأخذه حين نتركه!

– ومَنْ شيطان البحر؟

أجاب القبطان ساخرًا:

– إن سألتني، شيطان البحر كشيطان الصحراء، الجوع والعطش!

تدخَّل أصغر البحارة "مُحب" في الحديث مستنكرًا ما يفعله الآخرون، ملامحه قمحية، دكناء، وعظمتا صدره بارزتان إلى كتفيه، عيناه العسليتان تفشيان بحداثة سنه رغم الهدوء الذي سادها إثر اعتياد رؤية البحر:

– ما يقصد قوله يا سيدي أن تلك محض خرافات، يرمونها لبعلزبول، يظنون أنه يسكن بحر الخزر، وأنه من أبناء إبليس، والأجدر بهم اتقاء الجوع والعطش، فهما مَنْ يقدران حقًّا على إهلاكهم، غير أن الله قد نهى عن التذلُّل لغيره.

أُعجِب شيرزاد بالفتى فقال:

– مِن أي البلاد بفارس أنت يا بني؟

ابتسم الفتى قائلًا في أسى:

– لا يهم الآن وقد أُحرِقت كلها.

حنق شيرزاد من إجابة الفتى، إذ ذكَّرته بما شرب القناطير لينساه، أحسَّ القبطان بغضبه، فأمر محب أن يوثق حبال المؤن على السطح، فإن أمتعة شيرزاد من سيوفٍ مذهبة وأموال وأقمشةٍ هرب بها وسعت

جسد السفينة الصغيرة كلها، ولم يبقَ مكانًا يوضع به المؤن سوى السطح، فقرَّر القبطان ربط الطعام والمياه بحبالٍ بسطح السفينة، بدا للبحارة حينها أن القبطان قد جُن تمامًا، إلا أنه ليست من عادة المال الترفُّق بعقول البحارة. فوافقوه حين علم كل منهم بحصته في الرحلة.

***

اليوم الثالث..

مرّت السفينة بين بعض الجزر المهجورة في طريقها حين أتى الليل، حينها كان شيرزاد قد صادق القبطان والفتى واعتاد رؤيتهما، وجلس ثلاثتهما بصحبة زهراء في مقصورة القبطان، كان قد كسا المقصورة ببساط فارسي أحمر اللون، وكانت قد بُنيت دون باقي السفينة بخشب البلوط الأحمر، وبأحد حوائطها الخشبية عُلقت أرفف ليضع بها الكتب والخرائط بعيدًا عن مصباحه الزجاجي الملون خشية أن تمسها نيرانه، كانت المقصورة تموج بجوٍّ من الدفء والسكينة،كأن القبطان أشعل بينها وبين برد الدنيا وقسوتها خصومة تمتد للقيامة، تسلقت زهراء الأرفف ملقية الكتب على رأس الفتى فتضاحَك الجمع.

قد اتخذتُ مُحبًّا ولدًا لي بعد أن فقدتُ ولديَّ في البحر ورحلتُ إلى الجانب الآخر من بحر الخزر، وقد كان نعم الولد منذ أن أبحر معي أول مرة، قد بنينا تلك المقصورة معًا، وهيأناها حين جلبت أخشابها من الشام.

قالها القبطان حين انحنى محب ليساعد شيرزاد في التقاط ما رمته زهراء فوق رأسه، سقط كتابٌ أخير بقرب شيرزاد، فشرع بتصفُّحه مُمازحًا القبطان:

– تهوى القراءة أنت كما أهوى الأسود.

- ليس كثيرًا لكن...

لم يكمل القبطان جملته حتى صرخ شيرزاد مُلقيًا الكتاب كأنما خرج ثعبان من صفحاته، هدج فجأة صوت صراخه ثم سقط مغشيًّا عليه.

تبلّدت أطراف شيرزاد كأنما عاد جنينا حين حملته أذرع البحارة خارج المقصورة، وما إن استعاد وعيه حتى هُرع إلى داخلها ثانية ممسكًا بالكتاب، ظلَّ يفتش في الصفحات حتى أدرك أن ما رآه كان حقيقة، كان به رسمٌ تصويري لما يراه في الأحلام، تأكل الورق فطُمست أجسادهم ولم يعد يظهر منها سوى المخالب وأجزاء من الذراع، لكنه تأكّد حينما رأى الأجنحة المعقوفة

- من أين أحضرت الكتاب؟

سأل القبطان بغلظة فابتلع القبطان حدته قائلًا:

- مِن تاجر غجري، ما الذي رأيته به ففعل بك ذلك؟!

- لا شيء، سأرجعه لك حين أنتهي منه.

عكف شيرزاد على الكتاب بغرفته لا يؤنسه سوى الخمر وقواميس أحضرها من مكتبة القبطان ومصباحه، وسرعان ما علم ما يأتيه كل ليلة.

"البُلهان"..

كلمة بابلية قديمة، تعني زائري الخائن، جِنٌّ يأتون الخائن إن سُلطوا عليه في سدال الليل إن نام معزولًا عمَّن خانهُ، ويسامرونه كل ليلة حتى يُخنق في حلمه أو يهلك مجنونًا، إن جلبَ بشرًا يسامرونه غضبوا وفضوهم عنه، وإن فضوهم عنه أقبلوا إليه قبل أن يقتلوه فيأتونه كما رآهم في نومه، لا مهرب منهم سوى إلى مَن خانه الخائن، ويأتمرون لبعزبول حفيد الخناس الثامن".

انهمر عرق شيرزاد مُثلجًا فوق أوراق الكتاب، كل ما رآه لم يكن أحلام سكيرٍ فحسب، كيف يرجع لنيسابور الآن وقد تساوت بالأرض؟ ومَن يجالسه من أهلها وقد أصبحوا رمادًا؟ إن صح الكتاب البحارة هم من أحضرهم ليُسامروه، سينفضون مِن حوله وحينها سيحضرون وسيراهم كما لم ير من قبل.

أرجع شيرزاد الكتاب للقبطان المتعجب دون أن ينبس بكلمة، وجلس بسريره، وقد خفُتت زرقة عينيه وغادرت الدماء وجهه كالموتى، سرعان ما استسلم للنوم كأنما يجتره عنوة، ليذوق ما يذوقه كل مرة، لكن تلك المرة كان الأمر مختلفًا، كان يرى مشهدًا يبث له من داخل السفينة بقرب الإسطبل، إذ سمع صيحات الأحصنة تعلو كلما اقترب، تقترب الصورة شيئًا فشيئًا حتى يفتح باب الحجرة التي بها قفص الأسد، ليرى زهراءَ أمام القفص، وشيئًا شديد السواد بداخل القفص يهابه الأسد، ويجاهد الهرب منه باصطدامه بالقفص، يفتح الشيء باب القفص فيخرج منه قسورة كي يصبح فاه أمام بطن

زهراء الصغيرة، تنفر عروق الأسد الضخم ويجاهد كي يمتنع عنها، لكن الشيء الأسود يتلبسه، لتسوَّد عينا قسورة ويدور حول زهراء وعلى وجهه بسمة، ثم ينقض عليها ليُمزقها اربًا وشيرزاد يشاهد.، ترك الأسد الأشلاء وهرولَ نحو البث فخرج منه الشيء قائلًا:

– تعال إليّ، وسأتركها.

***

اليوم الرابع..

استفاق شيرزاد قبل فجر اليوم الرابع كيلا يجد زهراء بقربه.

هرولَ نحو غرفة قسورة صارخًا في البحارة النائمين، فتح الباب ليجد الأسد طليقًا وعيناه كالفحم، يرمقه باسمًا وزهراء متسمرةً أمامه.

شرع ما بداخل قسورة ليفعل ما أتمّه في الحلم لكنه توقف فجأةً دون أن يمسها، علم شيرزاد أن ما بالأسد ينتظر ليتقدم إليه ويفتدي زهراء، لكن لم يقوَ شيرزاد على فعلها، لاح على شفتي الأسد شبح بسمةٍ ارتعد لها شيرزاد، عنت أنه كان يعلم ما سيحدث، يعلم أنه لن يفتديها كما لم يفتدِ أهل نيسابور. ثم التوت رقبة الأسد فجأة لتنكسر رقبته ويموت.

هرولَ شيرزاد ليحتضن الصغيرة، والبحارة المستيقظون يصرخون في الأعلى بأن أيقظوا القبطان، صعد شيرزاد ليرى ما حدث:

– ما أغنى عنه ماله وما كسب.

– سيصلى نارًا ذات لهب.

– ما أغنى عنه ماله وما كسب.

كان أحد البحارة يُردّدها،وقد ابيضَّ شعرُه وعيناه وافترش الأرض نائمًا كالجنين، وباقي البحارة يبكون ويتضرعون إلى الله أن ينقذهم، ما إن انتهى البكاء والدعاء حتى جاءهم القبطان مُهرولًا:

- فلتكف النساء عن النحيب، وتأتِني بطاقمي! لن ينفع البكاء الآن.

ثم انتقى محب من بين البحارة ليقص عليه ما حدث، تمالك محب نفسه وأشار إلى البحار الذي جُنَّ قائلًا:

- قد تركناه كي يراقبَ المؤن خشية أن تنفك الحبال فنهلك، وبعد وهلة سمعنا صراخًا فصعدنا إلى السطح لنجده هكذا و...

ثم أجهش بالبكاء قائلًا:

- وقد ذُبحت كل الأحصنة، ومُلئت أكياس الطعام والماء بدمائها.

هدّأه القبطان، فصاح به أحد البحارة مُشيرًا إلى شيرزاد:

- قد هبط علينا هذا بذهبه، وحريره دون أن نعلم عنه شيئًا، إن جاءنا شرٌّ فقد جاءَ منه.

قبض القبطان على رقبته قائلًا:

- أنا هنا من أقول من أين يأتِي الشَّرُّ، وإن لم يعجبك.

ثم دار القبطان بعينيه إلى البحر كأنما يكمل قائلًا:

- عُد سابحًا.

فكَّ البحار أيدي القبطان من حول رقبته قائلًا:

- قد قررنا، فليذهب الغريب وذهبه إلى الجحيم ولتذهب معه إن أردتَ، أنزلنا في أقرب جزيرة نلقاها ننتظر الغوث أو ألقنا الآن، في الماء.

ضحك القبطان قائلًا:

- الموت في إحدى الجُزر المهجورة والنوم مع الأسماك أفضل إليك من صُحبته؟

- بل أفضل عندي من صحبته.

ثم أشار البحار إلى الآخر الذي جُنَّ.

صمت القبطان قليلًا ثم أردف ساخرًا:

- ألم تلقوا بالقاربين إلى شيطانكم منذ يوم؟ من تخافون الآن وقد رشوتموه. إن فعل ذلك بزميلكم فربما أعجبه صيدكم فاشتهى المزيد، ألقوا إليه بسمكة أو اثنتين كي يرضى عنكم ولنتابع رحلتنا!

استأنف البحار كلامه بلا اكتراثٍ لسخريته:

- قد تُبنا إلى الله منه.

ثم نظر إلى شيرزاد قائلًا:

- ومنك أيضًا ومن أموالك النجسة، لم تُملأ أكياس المؤن بالدماء إلا بعد أن مُلئت أكياس ذهبك وحريرك.

أنهى القبطان الحديث قائلًا بنبرته الساخرة:

- حسنًا، سألقي بكم في أقرب برٍّ ألقاه، ولكن لا ينتظر أحدكم مني أن آتيه حين أعود، قد تبقى على الشاطئ يومين بأية حال، ولم أعد بحاجة إليكم، فلتأكلوا بعضكم البعض عند أقرب جزيرة!

***

اليوم الخامس..

كانت قد اقتربت إحدى الجُزر من السفينة، وما إن رآها البحار حتى تهلّلت أساريرهم، قبّل شيرزاد رأس كلٍّ منهم كي يبقى إلا أن صورة البحار الشائب وأكياس الغلال والمياه لازمت رأسهم وذكّرتهم بما حدث بقوم فرعون، أية البحار التي يرددها بلا توقُّف سرت كالرعد في بدنهم، هبط البحارة على جزيرة نائية بعُدت عن شاطئ بلاد الشمال يومين، في انتظار أن يأتيهم أحدهم فيغيثهم، ولم يعد مع القبطان سوى محب والبحار الشائب، احتجز القبطان الشائب في أحد الغرف أسفل السفينة، وشرع في إلقاء جثة قسورة والخيول في المياه.

– لا بأس.

– لا بأس، ما دام القبطان، ومحب معي لم ينفض الناس من حولي، وهكذا لن يأتوا إليّ!

قالها شيرزاد بنبرة اعتلاها الخوف بقرب القبطان ومحب، أخرجَ القبطان زفيرًا طويلًا ثم خاطبه قائلًا:

– أتوسَّل إليك أيها السيد! يكفينا مجنونٌ واحد الآن! اذهب لتستريح، والغد ترى شيئًا من الشاطئ.

– لا تقلق إني بخير.

مرت الليلة على شيرزاد كالدهر، لكنه جاهد سلطان النوم حتى أطاح به في غرفته، لكن في تلك الليلة هدأ صوت الخمش، وهجره زُوّاره لينام كما لم ينمْ من قبل.

***

اليوم السادس..

صعد شيرزاد الدرج إلى سطح السفينة بعد أن أنعشه نسيم الصباح، ونفذت خيوط الشمس من ثنايا الأخشاب فوقه، كان قد ترك محب وزهراء والقبطان بالأعلى يتسامرون، اندفع إلى السطح تقوده أنوار الشمس ليصعقه هول ما رآه، كانت السماء في الأعلى حالكة السواد، والموج يطيح بجانبي السفينة ويُهشِّم خشبها كأنما يقضِمُها، هرولَ زهراء ومحب إلى أسفل السفينة قبل أن تُطيح بهم الرياح خارج السفينة، وصرخ القبطان في شيرزاد أن يفيق من دهشته ويأتيه، فسارع إليه شيرزاد ليساعده، أعطاه حفنةً من الحبال ليبقيها مشدودة لكن حينها لم يقدر بشرٌ على مُناطحة تلك الرياح، باغتته الرياح فجأة فقذفته ليُفلت الحبال ويطير مرتطمًا بأعلى الساري النحاسي، ثم سقط بشبكةٍ من الحبال عُلقت في أعلى الساري، كان عقله ليُدخله في سباتٍ بعد صدمة كهذه لكن سرعان ما أيقظه الخوف.

حين فتح عينيه تلك المرة شاهد الأشرعة وقد تمزَّقت بعد أن أفلتت حبالها وهشَّمت مقدمة السفينة، وهدأت الأمواج، وأصبح البحر كبحيرة راكدة من الحبر.

– أسدٌ أطلسي، في عقده الأول، قد صدت مثله قديمًا!

نظر شيرزاد لمصدر الصوت ليجد القبطان بقربه واقفًا على خشبة ناتئة من جسد الساري وينظر إليه مبتسمًا، بسمة كالتي ابتسمها قسورة قبل أن يكسر عنقه.

– مسكينٌ ذاك الليث، لم أرد أن أكسر عنق أحد سواك يومها.

هَدَّج صوت شيرزادِ حتى خرجت منه صرخة لعل محب ينقذه، أزعجت الصرخة القبطان فزاد صوتُه غِلظة حتى أصبح أشبه بحشرجة البعير.

– لن يسمعك أحد، إنهم نيام منذ أن تركتهم البارحة، لست بعالمك الآن، وإن تابعت الصراخ هكذا سوف أتركك وأذهبُ!

صرخ شيرزاد لكن نظرة القبطان إليه علّمته أن ما قاله كان مزاحًا فحسب.

– أأنت من البُلهان؟

ضحك القبطان فانفرج فمه ليسفر عن أنياب سوداء كالكلب، وكان جلده يميل إلى الأسود بينما يتكلم:

– لا تصدق كل ما تقرؤه في الكتب، فبعضهم يفتقر إلى التحديث، قد قتل بعلزبول أغلب البلهان، ولم يبقَ سوى شراذم مختبئة منهم في الجبال.

كان شيرزاد قد استسلم لمصيره وتشبث بمظهر الآدمية الأخير في الشيء الذي أمامه وهو التكلُّم، فشرع يسأله:

- ولِمَ يقتلهم وهو أميرهم؟!

ضحك قائلًا:

- بوسعي سؤالك الشيء ذاته! أتعلم يا شيرزاد، حكمت هذا البحر ألف عامٍ وهم تحت إمرتي، قد أحببت جدي كثيرًا، رغم كوني حفيدة الثامن وأصغرهم قد كنت أعتى أحفاده، إلا أن الأيام تعاقبت حتى سئمتُ ما أفعله، فذبحت أغلب البُلهان وتركت مَن هرب، ثم مكثت على بحر الخزر ملكًا دون حاشية وأفلت نفسي من ولايتي عليها، كما فعلت أنت، كان كل شيء كما أردت، حتى جئتَ أنت وسُلطانُك إلى مياهي!

بكي شيرزاد قائلًا:

- ماذا اقترفتُ بحقِّك، فقط أردتُ الرحيل.

- ولم أطلب شيئًا أنا الآخر أكثر ممَّا طلبتَ أنت! لكنك تعلم جدي، إن اشتُهر عنه شيءٌ فهو العناد، أحد السحرة حضّر البُلهان الذين تبقوا بجبال نيسابور وجمع شملهم لتحضيري، وعندما علم بذلك جدي دعمهم وقوّى شوكتهم كي يأسروني.

ثم صرخ قائلا:

– حتى أمّرهم عليّ! ظلوا يخمشون بجسدي، ويعذبونني حتى أُجبرت على إمارهم من جديد، وحين حضرت للمشعوذ، طلب مني رأسك ورأس السلطان.

– ومن هو؟ من الساحر؟

سأله شيرزاد فشرع بعلزبول كأنما نسي شيئًا ثم سأله فجأة:

– لا أذكر جيدًا، أتذكُرُ من أي بلدة في فارس أخبرك محبٌ أنه منها؟!

ضحك بعلزبول، وهو يُقطّع الشبكة التي تحمل شيرزاد ليسقط على رأسه من أعلى الساري:

– حاولتُ أن أريك كيف تنجو حين ألقيتُ إليك الكتاب كي أفسد على الفتى انتقامه، لكنك كنتَ أجبن من أن تعد من حيث أتيتَ فتنجو، قد غادرَ الفتى نيسابور وسكن بحر الخزر منذ سنين.

وسمع وقت حصار مدينتك أنك هاربٌ إلى بحر الشمال، وأدرك أنك كالسلطان سبب في موت عائلته، فخطط كي تأتيه بنفسك بل وتعطيه ذهبك كي يقتلك، ذكي! فتى ذكي! لكني سأريهُ من النيران أودية لم يسمع عنها حين ينتهي سحره عليّ! كنت أود إكمال حديثنا، من خائنٍ لآخر، لكن لديَّ بحرًا لأحكمه ورأس سلطان لأحصدها!

فرد بعلزبول جناحيه مُشاهدًا شيرزاد من أعلى، وشاهد شيرزاد حلمه كما رآه أول مرة، الحراشف السوداء والأجنحة المعقوفة تتلقفه خارج السفينة، تصطحب جثته المشدوهة إلى جبال نيسابور.

استيقظ محب وزهراء ثم صعدا إلى السطح، وجاء وراءهم البحار الشائب بعد أن بَرِئَ من صرعه، هرول البحار نحو مقدمة السفينة ليجدها أمام الشاطئ، إلا أنه شاطئ فارس فقد عادت السفينة من حيث أتت، ليلقي البحارة الذي تركوهم على حافة الشاطئ وقد أعادهم إحدى المراكب إلى البر.

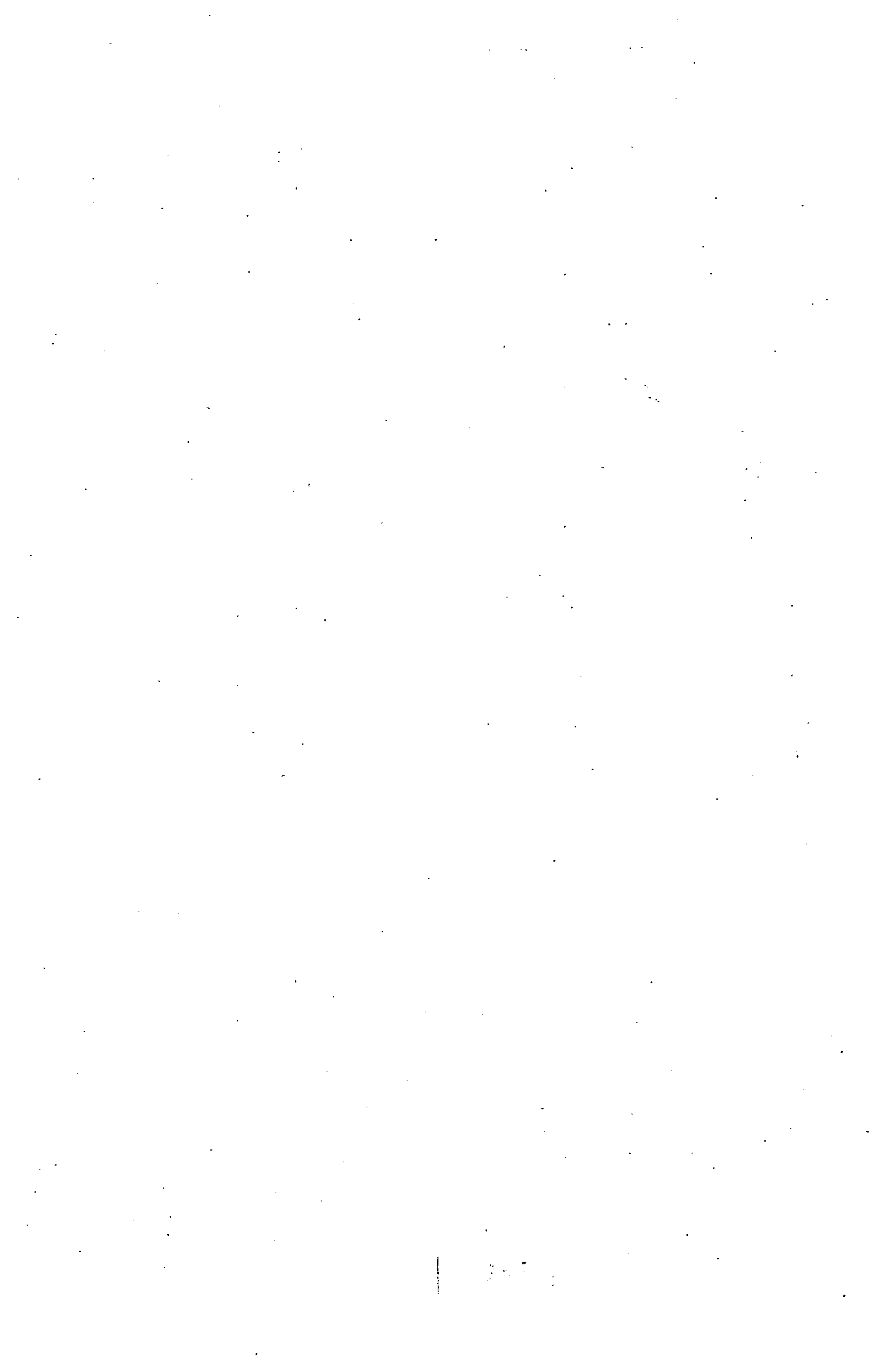
– أما محب، فقد جاءنا تائبًا إلى الله، وعاد إلى فارس بعد أن اختفى شيرزاد في اليوم السادس أملًا أن يلقى أحياءً من أهله فوفَّقه الله أن يرى زوجته، واستودع زهراء عند البحار الشائب خوفَ أن يمسَّها شرٌّ من بعلزبول، يا أهل نيسابور. يا مَن بقي من أطلال أحب البلاد إليَّ، علِّموا أولادكم ألَّا يكونوا كمن أضلته الشياطين فيُفني عمره حيران لا يعلم أين ينتمي، ويهلك راحلًا عن الله ويهلككُم معه!

أتى أحدهم حين حلَّق الناس من حول فريد الدين وبكت النساء، كان قد صعد أحد الرجال إلى سطح الأرض مفتشًا عن جثة القتيل خوفًا عليها من الذئاب، وأتى وبرفقته امرأة سمع بكاءها حين كانت مختبئة قُرب الجثة، كان قد أحسَّ العطار أن محب هو مَنْ قتلته سرية التتار أثناء رحيله، إلا أن بسمته التي لاحت حين أراحوا جثته على فخذ العطار أفشت أن الموت مواجهًا سيوف التتار إنقاذًا لزوجته كانت أحب إليه من الموت هاربًا ببراثن بعلزبول.

محمد مجدي غانم

* الرأي المتعارف عليه بين الباحثين وأكثرها قبولًا أن فريد الدين العطار قد مات 627 هـ أي بعد اجتياح التتار الأول عام 616 و617 هـ، وذلك يعني أنه بشكل أو آخر تمكن النجاة من مذبحة التتار لنيسابور، مما رجح الظن بوجود ناجين.

* قال المؤرخ ابن الأثير – رحمه الله – أحد المعاصرين لاجتياح المغول: "من أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمدا قد عُدِم لا يعرف حقيقة خبره، فتارة يُقال: مات عند همذان وأُخفيَ موتُه، وتارةً داخِل أطراف بلاد فارس، ومات هناك، وأخُفيَ موته.. وتارةً يُقال عاد إلى طبرستان وركب البحر، فتوفِّيَ في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عُدِم، ثم صح موته ببحر طبرستان".



جـزيـرةُ السّـعـادة

بدا (صوت) يُنادي من بعيد ويقترب:

- (أحمد).. (أحمد).

حتى انتفض له (أحمد) من نومته غير الهانئة متلفتًا بتوتر شديد، والعرق يتصبَّب من وجهه.

فهَمس له (الصوت) بسؤال:

- "ما لك يا ابني انت مش على بعضك كده؟!

نظر (أحمد) حوله وهو يتدارك أنه استيقظ جائلًا ببصره على المكاتب التي تحيطه، والبقية ينظرون له متظاهرين بعدم الانتباه، فرد على (سائله) بهدوء غير ملحوظ وهو يفرك عينيه:

- معرفتش أنام امبارح يا (مُحي).

نظر له (محيي) بتعجّب:

- هو امبارح بس يا (أحمد) أنت بقالك أسبوع على الحال ده!

أومأ له (أحمد) بحسرة قائلًا:

- بقولك.. تيجي معايا نقعد في حتة برة وأحكيلك، إنت وراك حاجة؟!

أومأ له (صديقه):

- ورقتين مش هياخدوا خمس دقايق هاختمهم بعد كده.. أنا بتاعك

بان على (محيي) الاهتمام الشديد بصديقه دون بقية العاملين فليس عليهم إلا تقطيع فروات الآخرين بسكين النميمة، ويبدو أنه بمجرد رحيلهما ستبدأ جلسة التشريح عليهما (الصديقان، الحبيبان، النطعان المتأخّران، إلخ..)

لكنه لم يُبالِ بهم قط، يدرك أنه طبع متأصل بهم، ولن يتغير أو يغير شيئًا فليس عليهم إلا النفخ فقط..

وأثناء وصلة التفكير وترتيب الأفكار المبعثرة لديه لكزه (محيي):

- يا ابني إنت!..أنا عمال أزغدك إنت مبتحسّش؟!

استجاب له (أحمد):

- معلش يا (مُحيي) هتعذرني لما أحكيلك. إنت خلصت؟

ابتسم (محيي):

– من زمان وعمال أكلّم فيك وإنت ولا هنا.

كرر (أحمد) اعتذاره:

– معلش أنا آسف يالا بينا.

***

وبعد دقائق بأحد الكافيهات:

نظر له (محيي):

طلبتلك قهوة عشان تفوّق كده".

ابتسم له (أحمد) شاكرًا.

نظر (محيي) له بتفحص:

– هه مالك بأه إنت شكلك متخانق مع المدام ولا إيه؟ حكم مشكلات اليومين دول كلها علاقات زوجية، المدام عندي جايبالي الكافية برضه.. انجز وقولي بقالك أسبوع ليه كده؟

تبسّم له (أحمد) مجاملة، وقد بدا عليه الإرهاق:

– الموضوع مش زي ما أنت متخيل أو أي حد تاني يتخيله!

ثم اقترب بجذعه له هامسًا:

- تسمع عن جزيرة في النيل اسمها (جزيرة السعادة)؟!

نظر (محيي) للفراغ ممتعضًا بشفتيه، ثم هزَّ رأسه:

- لأ.. مالها الجزيرة دي؟!

أجاب (أحمد) بإحباط:

- يا ريت تصدقني بس عشان أنا قربت أتجنن وهموت من الخوف، أنا مابنمش ومش عارف أعمل إيه في (سلمى) مراتي!

(محيي) بتعجُّب:

- (سلمى) مراتك! مالها (سلمي)؟!

هز (أحمد) رأسه ببطء:

- هحكيلك بس والمصحف ما أنت قايل لحد!

ضحك (محيي) لكن سرعان ما اختفت الضحكة من نظرتي الرعب والجدية اللتين ارتسمتا على وجه (أحمد)، فابتلع ريقه ليقسم:

- والمصحف.

بدأ (أحمد):

- الشهر اللي فات لما أخدت الأسبوع الإجازة اقترحت على (سلمى) إننا نجرب الجو الريفي بدل المصايف المعتادة، وكانت الدنيا متنشنة بينّا فقُلنا نهدّي الجو ما بينا وريلاكس وكده. عشان نوصل لحل لمشكلاتنا..

(البواب) عندنا قبل ما يجي العمارة كان شغال في عزبة عِرفنا إن صاحبها مات، الورثة بيأجروها مفروشة في المناسبات بأسعار رمزية، العزبة دي في جزيرة منعزلة عن الحياة وسط النيل اسمها (جزيرة السعادة)، فرُحنا هناك نهدّي أعصابنا.

أول يومين عدّوا عادي بدأنا نصارح بعض بمشكلاتنا وبقينا زي السمنة على العسل لغاية ما فضول (سلمى).. قلب الدنيا

ثم تردد لحظة و(مُحيي) ينظر بشغف له، ينتظر أن يكمل فأكمل:

– (سلمى) اكتشفت دور تحت العزبة، مدخله من تحت السرير مستخبي جدًّاااا بتقول إنها سمعت صوت غريب.. مصدقتش غير لما شوفت بنفسي.. نزلنا سلم طويل وتحت لقينا الصوت فعلًا واضح، اكتشفنا تحت مصنع صغير اسمه (مصنع السعادة)..

(محيي):

(مصنع السعادة) ؟! بيصنع إيه بالضبط؟

(أحمد) بملامح جامدة:

– بيصنع السعادة.. شفت فيلم أرض النفاق؟

(محيي) وعلى وجهه بشائر ابتسامة:

– بتاع الأستاذ (فؤاد المهندس) الله يرحمه.. إنت بتهزر صح؟

لكن نظرة (أحمد) الجامدة لم تتغير لتبين مدى جديته وكأنه لم يسمع السؤال:

- حاجة زي كده، مصنع بيصنّع حاجات تجيب السعادة لأهل بيتك.. بصراحة شكيت ومصدقتش زيك غير لما لقينا صندوق صغير مكتوب عليه من بره (صندوق السعادة)، (سلمي) بفضولها، حاولت تفتح الصندوق أول مافتحته بَخ فيها حاجة زي البودرة خلتها يغمي عليها، أنا اترعبت مش عارف حصلّها إيه!

بعديها بخمس دقايق وأنا بحاول أفوقها فاقت وكأن مفيش حاجة، أنا افتكرت إن البودرة دي فيها مخدر بيدوّخ. بس بعد كده..

ثم سكت لحظة:

- مش عارف ده وهم ولا لأ لقيت (سلمى) بتضحك كتير على غير العادة و الحياة بقت فل في آخر اليوم، إنت فاهم..طبعًا

أومأ له (محيي) متفهمًا.

أكمل (أحمد):

- بس.. لما نمنا، وهي جنبي حسّيت بصوت عياط ونهجان. فُقت وركزت لقيتها نايمة على جنبها ومدياني ضهرها ونَفَسْها بيعيط، افتكرتها بتضحك من غير سبب، الموضوع وترني!

قمت ناديت عليها قامت سكتت،بس مبصتليش أنا قلت بتحلم.. ولسه نايمة.. صحيت الفجر لقيتها قاعدة على كرسي التسريحة مدياني ضهرها، وبرضه صوت النهجان طالع منها..

بجد أنا مكنتش عارف أعمل إيه كنت خايف أوي، حسيت في اللحظة دي إنها مش (مراتي)..

قمت ناديت عليها وسألتها:

– مالك؟!

سكتت لحظة وبصتلي لقيت بُقها مبتسم بابتسامة واسعة وبطريقة غريبة كأنه مشدود لودنها، بجد اتفزعت ووقعت لورا من الخضة وهي بتقولي:

– مالك إنت يا (حبيبي)؟!

– "أنا لميت اللي اتبعتر مني من الإحراج عشان حسيت إني أحرجتها وخفت منها. بجد منظرها مش طبيعي

بلعت ريقي قبل ما أرد عليها:

– إنتِ بقك ماله، وإزاي بتعيطي وانتي مبسوطة كده..

ردّت عليا ببرود:

– بالعكس انا فرحانة جدًّا.

– وبجد مشفتش مراتي بالشكل ده. طلبت مني واجب الجواز إن (إيبيه..) وكأنها مستنية إني أصحى.

ثم نظر لأسفل من الخجل مكملًا:

– إنت متخيل إنك تنام مع مراتك وبُقّها مفتوح زي العرايس، وثابت على الوضع ده وملامحها السعيدة دى مش بتتغير، أنا بجد اترعبت منها بس كان لازم أنفّذ كل طلباتها، وبعديها نامت وأنا دماغي بتلف، حتي وهي نايمة بقها بيضحك!

(محيي) وهو ينظر برعب:

– إنت بتتكلم بجد؟!

(أحمد)؟! إنت بتحكي حاجات مش منطقية؟!

نظر له (أحمد) مقطبًا حاجبيه وهو يلتفت حوله داسًّا يده في جيب حقيبته ليخرج صندوقًا عتيقًا مكتوبًا عليه (صندوق السعادة).. فغر (الثاني) فاه متسائلًا:

– هو ده؟!

أومأ له (أحمد):

– بعد ما (سلمى) نامت اكتشفت إن فيه باب تاني تحت سرير الأوضة التانية زحفت من تحت ونزلت لقيت باب العاملين، مش كده وبس لقيت كذا صندوق من ده..

اكتشفت إن (صاحب العزبة) رغم فلوسة اللى ملهاش حصر كان بيعاني من اكتئاب مزمن واستعان بالسحر الأسود.. عشان يشتري السعادة، كان بيقتل كل شخص سعيد في حياته، وبيطلع قلوبهم وبيحرقها بطرق سحرية ومشعوذة لغاية ماتبقي رماد واللي بيشم الرماد المسحور ده بيبقى سعيد سعادة بس مؤقتة مش دايمة..

(محيي) بقلق واضح:

- يعني مراتك شمّت رماد قلب واحد سعيد، طب أكيد الفترة عدّت وخفّت؟!

(أحمد):

- الفترة عدّت بس مارجعتش بطبيعتها.. جالها اكتئاب حاد، وكل شوية بتفتح صندوق، وتشم اللي جواه وترجع سعيدة تاني.. الصناديق خلصت مبقاش غير ده.. بقت مبتنيمنش من كتر العياط بقت مسخ في البيت شكلها بيرعبني، مش هتصدق.. أنا فكرت كتير اقتلها من كتر الضغط اللي جابتهولي.

مش عارف إزاي أصنع صندوق زي ده، القلب لازم يكون مقري عليه سحر والراجل مات وسرّه مات معاه

أنا رُحت المصنع امبارح ملقتش غير الصندوق ده بس وملقتش سر ولا ورقة تبين إزاي أصنعه.

(محيي) وهو يرتعد:

- وهتعمل إيه بالصندوق ده؟!

(أحمد) بأسًى وحسرة:

- أنا رجعت الصبح عشان أديهولها بس. ملحقتهاش!

(محيي) وهو ينظر له بقلق:

- بصّتك مش مريّحاني يا (أحمد) إنت عملت إيه؟!

(أحمد) بحزن:

- أنا معملتش هي اللي عملت، إنهاردة الصبح لما رجعت لقيتها..

ثم صمت لحظة ليستجمع قوته..

(محيي) وعيناه تهتزان:

- ؟!

أكمل (أحمد):

- شنقت نفسها.

(محيي) وهو ينظر برعب صائحًا وقد اندمج:

- إنت بتقول إيه؟!

(أحمد) وعيناه تبكيان:

- للأسف أنا دلوقت سايبها مشنوقة في البيت جريت على الشغل من صدمتي.. (مُحيي) أرجوك أنا في مصيبة، ومش عارف أعمل إيه؟!

نهض (محيي) برعب مبتعدًا للوراء وهو يهز رأسه في صدمة من (صديقه):

- إنت مجنون يا (أحمد) أنا مش مصدقك..

نظر له (أحمد) بنظرة استجداء ثم إحباط شديد بينما (صديقه يبتعد) عنه متخليًا عنه ورافضًا تصديقه،وقد بدت الأمور وكأنها تنهار من حوله..

***

فُتح باب شقة (أحمد)، ودلف شخص بسرعة يبدو عليه القلق الرهيب، فإذا به (محيي) ينظر برعب شديد أمام جثة (سلمى) المعلقة والتي تبتسم رغمًا عن ملابسات المشهد:، فصرخ:

- (سلمى) هو عمل فيكي إيه المجنون ده..؟!

ثم قام بإخراج هاتفه ويداه تهتزان وهو يبكي بحرقة ويتصل بالنجدة لكن لم يلحق إذ تناول صفعة شديدة جدًا أطاحت به وبهاتفه الخلوي على الأرض متحطمًا.. فوجد أنه (أحمد) الذي نظر له:

- كنت متأكد إنك هتيجي هنا.. شقتي.

صاح (مُحيي) بهيستريا وهو يزحف للوراء:

- إنت شخص مش طبيعي، هي دايمًا بتحكيلي عن تصرفاتك المجنونة، أنت اللي قتلتها، إنت أكيد اللي شنقتها.

أحمد وهو ينظر إليها:

- هي كدبت عليك، بص شوف وشها بيضحك إزاى، هي اللى شنقت نفسها.

نظر (محيي) لها وهو يعض على شفتيه باكيًا..

أكمل (أحمد) وهو يقترب بملامح غاضبة جازًّا على أسنانه:

- قمة الوساخة إنك تلعب بديلك مع (مرات صاحبك) وتخونوه إنتوا الاتنين، وقمة الفجور إنها تديك مفتاح شقتي.

الأجازة دي كانت فترة نقاهة عشان نتصافى، رغم كده أنا سامحتها على خيانتها معاك، وهي ندمت على اللي عملته بس أوجع حاجة في الدنيا إنك تنام مع (مراتك)، وتلاقيها بتنادي باسم غير اسمك: (مُحيي)".

ثم أكمل بأسًى وهو يُخرِج الصندوق:

الصندوق ده بيّنلي حاجة.. (إن (سلمى) مهما ندمت هتفضل تحبك عني وهتخوني في خيالها).

صرخ فيه (مُحيي):

- إنت مكنتش تستاهلها من الأول أنا كنت بحبها..هي محبتكش.

(أحمد) متماسكًا نفسه:

- عشان كده هتحصّلها.

قالها، وهو يقترب من (مُحيي) بالصندوق ويفتحه ويرفع كمامة على وجهه مكملًا:

- الغريب بأه إنك هتشم الرماد ده وهتفضل واقف قدام جثتها تبتسم وإنت من جواك بتبكى ألف مرة ومش قادر تعمل لنفسك حاجة، السعادة خارجية بس، الصندوق ده هيحل مشكلة انتحارها بعيد عني و....

وعلى غير المتوقع بخ (أحمد) محتويات الصندوق في وجه (مُحيي) بتوقيت مفاجئ ليكح (الثاني)، ومِنْ ثَمّ يُغشى عليه..

أكمل (أحمد) وهو يرجع للوراء ليتم جملته:

- وعلى فكرة البوليس عنده خبر خلاص.. مبروك!

وفي لمح البصر اختفى (أحمد) من المكان، ويبدأ (مُحيي) في الإفاقة، وتقع عيناه على جثة (سلمى) المعلقة التي تبتسم له ويبدأ يبادلها الابتسامة.. حتى وصلت قوات الشرطة وتشاهده يشير إليها وهو يضحك لكنه في الحقيقة يبكي بحُرقة من الداخل..

رفع الضابط مسدسه:

– (مُحيي غنيم)، جالنا بلاغ بيتهمك بقتل مدام (سلمى عبد العال).. مرات أستاذ (أحمد دويدار)، أنت مقبوض عليك!

و(محيي) ينظر لهم كالمنتشي والابتسامة الواسعة جدًّا تعلو وجهه بطريقة مستفزّة..

***

اقترب (أحمد) من العزبة التي يوجد أسفلها (مصنع السعادة) وهو ينظر للافتة مُلقاة عليى الأرض ليلتقطها ويُزيل الأتربة من عليها، مكتوبًا عليها: (عزبة السيد / على دويدار).

ثم ابتسم وهو ينظر للافتة متمتمًا:

– شكرًا يا جدي!

ثم رن هاتفه برقم غريب ليجيب على الاتصال:

– ألو

(الصوت) بصرامة :

– أستاذ (أحمد دويدار)

(أحمد):

– أيوه يافندم مين؟!

(الصوت):

– يؤسفني أبلّغ حضرتك بخبر مش كويس،....

ابتسم (أحمد) وهو يستمع لخبر قتل (زوجته) الخائنة (سلمى).. على يد أوفى أصدقائه (مُحيي)

أيمن العايدي



جيتاريست



أعطني كامل وعيك. وانتباهك فأنت الشاهد. والحكم! سأقصُّ عليك بالتفصيل ما حدث منذ اكتشافه، وسوف تتعاقب الأحداث. كُفَّ عن العبث بأي شيء.

كُن مع صوتي وتفاصيلي فقط. لن يُخبرك أحد سواي بما حدث للجيتاريست.

يقف بلال في منتصف الغرفة الأولى عاريًا تمامًا، ناظرًا إلى المرآة أمامه بنظرة ثابتة وخصلات شعره الأسود تغطي جزءًا من وجهه الذي يتشكّل بنحوله تحت سيول من العرق والضعف. حركة مفاجئة يرفع يده كأنها تصل إلى عنان السماء، ثم يهبط إلى أوتار جيتاره الإلكتروني – الكهربائي – ليصنع نغمة عالية مُرعبة.

تتوالى النغمات مع العزف. يتمايل رأسه بحركات عصبية حادة للأسفل قليلًا ويعود لقامته المشدودة مُخرجًا لسانه لشخص لا تراه

أنت، كأن عزفه رسالة إلى مجهول أو أنها من تأثير جرعات الحشيش الثقيلة التي يتناولها مع زجاجات الفودكا. يتحرك بجيتاره خطوات وهو غير عابئ باتجاهاته فذهنه مُركز على رسالته الموسيقية.

موسيقي الميتال حقًا كونٌ آخر. أتستمتع بهذا الصخب الحديدي والنغم الرنااااااااان مع كل دوَ أو ريَ متبوعًا بـ ميَ؟ يهدأ قليلًا فتهدأ النغمات معه إلى أن تصل إلى نغم ختامي، فتتعلق أصابعه على وترين ليصنعا الفينال. يخلع عنه جيتاره ويضعه على السرير برفق كأنه طفله النائم. يخرج إلى الصالة ليتناول بخاخته السوداء التي يحتفظ منها بالكثير فهي رفيقته مع الأقلام والألوان العريضة التي يرسم بها على الحائط.

أرأيت هذا الظل الذي سار خلف ظهره؟! لا تُنكر ذلك! من هذا بحق السماء!

ابتسم الأخرق – بلال – بدون صوت ابتسامة استهزاء، هل يعلم بأمر هذا الظل! يتمتم بألفاظ غير مفهومة لا تحاول إعادتها بينك وبين نفسك. إياك! تنطفئ الأضواء فجأة وتضيء عددًا من المصابيح الموجودة بالأركان، وهذا الأخرق يصل بين عددٍ من الدوائر في كل واحدة منها مكتوب حرفًا بالعبرية. يبدأ من أقصى دائرة في يمين الصالة تجاه البلكونة. يُكمل للتالية وصوته يعلو أكثر وتزداد حركته سُرعة. يرتفع صوته أكثر. يضرب الجدار بيديه إلى أن بدأ خطٌ أسود

سائل يتحرك على الجدار في اتجاهين ليصبا في المنتصف، وهذا المجنون يقف فاردًا ذراعيه كأنه مصلوب كمسيح.

يعلو صوت زمجرة وحشية تأتي من آخر المترل. ينتفض المجنون. أخيرًا شعر بخطورة ما يفعله! يمسك أقرب قلم تصل إليه يداه، ويكتب على الأرض بسرعة، وقطرات عرقه تتخلّل عينيه وتسقط، أرقام وحروف بشكل متتابع يبدو أنه يحفظها عن ظهر ليس هذا فقط، بل إنه انتظر تلك اللحظة.

صوت الزمجرة يقترب ويزداد قوة. وضربات قلب هذا الأخرق تزداد وصوت أنفاسه يعلو. يهب واقفًا والخط الأسود ما زال يتحرك.

تبًّا! هذا ليس ظلًّا واحدًا!

يأتي إلى مسامعه صوت تكسر زجاج! ينتفض وينظر إلى الخلف يتبين حرارة جسد تقترب منه. بخطوات سريعة، يدخل إلى الغرفة حيث ترك الجيتار يضعه حول خصره ثم يضربه من جديد بنفس قوته ولكن لا يوجد كهرباء! يحاول وضغط دمه أصبح في حالة مرتفعة لدرجة الهبوط. يأخذ نفسًا ويعود للعزف كأنه يستمع إلى اللحن قبل أن يستمع إلى جملة أخيرة لم يُفسرها، وأصبحت الأرض تحت قدمه سائلًا أسود لزجًا رطبًا. يتخذ طريقه للجدران، ثم نظر إليه صاحب هذا الصوت الوحشي نظرة استقبال قبل أن يقتحم المكان باقي الرفقة السوداء ليختفي كل شيء وراء سواد دامس وأصوات صراخ حتى تختنق الصرخة في الحلق.

تتقدَّم سيارات الشرطة ودوامة اللونين الأحمر والأزرق تُعلن وصولها مع صوتها اللافت وسرعتها داخل الشارع الجانبي – المُتفرع من شارع رئيسي معروفٍ – بمحلاته المتواضعة والمطبات الصناعية – البلدية – تلكم التي يصنعها الأهالي كلٌّ أمام بيته من أجل تهدئة سرعة السائقين. من جلس على مقعد هب واقفًا، الداخل خرج إلى الهواء في شباك منزله، أو أمام دكانه مُتسمرًا مُنتظر معرفة لمن تلك الزيارة المهيبة.

ترجل الكثير من المُخبرين، ثم تبعهم من البوكس "الباشا الظابط" هشام باشا رئيس المباحث شخصيًّا. شارب كثيف وقامة ممشوقة إلا من كرش صغير، وشعر مُسرَّح للخلف،وقميص وبنطلون كلاسيكي، وحذاء أسود لامع. ينظر الباشا في الوشوش حوله، يتخللها نظرة مُفاجئة للأعلى ثم عودة إلى الوراء كي يُمشِّط المنطقة بالكامل. الجميع مُشتبه به حتى يظهر الجاني أو الحقيقة أيهما أقرب.

– في شقة بلال للجيتاريست؟!

يسأل هشام باشا بصوت خشن قوي أول شخص في وجهه، عم خالد صاحب دكان البقالة الذي بدوره يُشير بذراعه إلى المدخل المُجاور لدكانه، مُكملًا "الدور التالت يا باشا."

يتقدم المُخبرون بحركة من يده إلى حيث أشار ووضح عم خالد الذي سيكون أول شخص يتم التحقيق معه ومحل أول الشكوك.

أتسمع أصوات الأقدام الصاعدة إلى الدور الثالث، كأنهم ديناصورات تدبُّ صعودًا إلى قمة الجبل. يضرب أول من يصل الباب بكتفه فينفتح عن آخره ويُضاء النور فورًا! أخفض رأسك بسرعة وأغمض عينيك كي تتفادى هذا العدد من الخفافيش والذباب الأسود الذي خرج مُسرعًا كأنه كان محبوسًا.

أول ما تراه عن يمينك، غرفة مُظلمة، ثم صالة ذات أرضية وجدران بيضاء مرسوم عليها باللون الأسود والأحمر الكثير من الرسومات لجماجم وعيون شيطانية تنظر لك بثقة وغضب. لا تنظر لها فهي تُطارد من يتابعها، وأخرى في الجزء الثاني إلى اليمين المُفضي إلى البلكونة الصغيرة المُغلقة، آثار رمال وريش لطير ورسوم أخرى لدوائر ومثلثات وموجات ترتفع تكاد تلمس السقف لتهبط سريعة بخط حادٍّ فيقطعها وجود الثلاجة في الركن الأيسر، ويعود الجدار للونه الأبيض من دون نقوش.

ملابس مُحترقة مُلقاة وأجزاء من زجاج مُتكسر متناثر في أجزاء مُتفرقة تظهر مع الضوء الأبيض لمصباحين مُعلقين بالسقف الذي لم يخلُ من رسوم سوداء غير مُفسرة. يتقدم هشام لينظر إلى باب الشقة قائلًا بذات صوته الخشن "باب تقيل.

لا ومحمل! حلو والله". ينظر للجدران المرسومة. دوائر وخطوط تصل بين دائرة وأخرى وثالثة تُكمل ثم إلى مثلث لتنتهي بعد عدد من

الدوائر والمثلثات إلى وجه شيطاني مُكشر بعينين غاضبتين تنظران إلى نفسك مباشرة.

يتقدم ليرى الطُرقة الصغيرة التي تُفضي إلى اليمين عن غُرفة أخرى، أمامها مُباشرة الحمام وردي اللون أو بالأحرى كان ورديًّا بعد أن امتلأ بلون أحمر قانٍ، وبلال مُلقًى وسط الدماء مُنكمشًا. جروح غائرة في الرأس- تظهر واضحة رغم شعره الطويل الذي يُغطي رقبته – وأخرى على الظهر في شكل دائرة ثم مثلث وبداخله عين سوداء مرسومة بعناية. فضلًا عن عدد من الأصابع المبتورة من الكفين والإصبع الأكبر في القدم اليمنى وكاحل بدون لحم. لم يبق منه غير العظم. المرآة مكسورة إلا من جزء في أقصى يسارها من البرواز الشفاف الذي يُحيطها. ينظر هشام إلى نفسه – بعد أن نظر لدقائق للجثة المُشوهة – يُعدل من هدامه ويُسوي شاربه ثم يخرج ليكمل الطرقة القصيرة المُنتهية بالمطبخ. يُلقي نظرة على وضعه الذي لا يختلف كثيرًا عن باقي الغُرف، كلٌّ في فوضى يسبحون!

يصل فريق الطب الشرعي لرفع البصمات ونقل الجثة والبحث والتقاط كل الأدلة المُتاحة. لا يزال هشام واقفًا أمام الرسوم السوداء في الصالة ينظر وهو يزفر دخان سيجارته الأمريكية، وعيناه معلقتين إلى الدوائر والخطوط الطولية والمادة السوداء اللزجة الموجودة في بعض الأركان.

– هشام باشا. أستاذ فؤاد جار بلال. اللي ساكن في الدور التاني.

قالها محمد بيه وهو يشير لأستاذ فؤاد بوجه لا يحمل أي تعبير يُذكر. يظل لحظات مُتأملًا، ثم ينظر له قائلًا:

– أستاذ فؤاد. أكيد أنت أول حد ارتاح بموت الأخ – بلال – طبعًا كان مصدعكم بالعزف بتاعه!

قالها وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته، فتضيق عيناه ناظرًا إليه في ثبات. ما كان من أستاذ فؤاد إلا أن ازدرد لعابه وهو ينظر بعيدًا عن وجهه كي يتفادى الشك في أمره. أستاذ فؤاد ضخم الهيئة والوجه ويرتدي حمالات الصدر فتساعد في تقليل حجمه قليلًا لكنها لم تُساعد في إخفاء معالم الشيب من وجهه وشعره الأبيض وعينيه المُنتفختين من أثر ارتفاع ضغط الدم.

– الله يرحمه ويحسن إليه يا فندم.

يقولها بصوت رخيم هادئ لا يُعبر عن القلق المُتجسد في حبيبات العرق التي تملأ وجهه. يُتابع هشام:

– حضرتك بتشتغل إيه يا أستاذ فؤاد؟!

– أنا مأمور ضرايب.

– بتقبض بالألافات طب ليه تقعد في عمارة متواضعة زي دي.

– الفلوس مابقاش ليها قيمة ياباشا. حضرتك سيد العارفين.

– أه عارف! قولي بقي تعرف إيه عن بلال؟!

– الحقيقة. نادرًا لما بقابله.بس كنت بسمعه بيعزف الموسيقي المُزعجة بتاعته أكتر ما بشوفه.

– الله يكون في عونك موسيقى الميتال صداع أوي.

– جدًّا معاليك والله.

– طب ما كلمتوش ليه تقوله حرام اللي بتعمله فينا؟!

– حصل يا باشا وطلعتله.

– طب ما في حاجات كويسة أهي إحكيلي بقي إيه اللي دار بينكم.

إبتسم هشام ابتسامة خبيثة، في حين توتر فؤاد أكثر حينما شعر بأنه أمام شخص ليس بالسهل مُطلقًا.

– في ليلة كنت راجع متأخر كان عندنا تفتيش وفضلت في الشغل لبليل. طبعًا حضرتك سيد العارفين بتفتيش الحكومة.

الأهم لقيته الصداع اللي بيعزفه ومراتي اتضايقت من الصوت العالي. فطلعتله.

يُخرج هشام سيجارة لفؤاد الذي بدوره يشكره ويؤكد أنه لا يُدخن. يستجيب الأول ويومئ برأسه أن "هاه وبعدين" يتابع الأخير:

- ضربت الجرس وكنت مغلول الصراحة.. فتحلي وهو دايخ شكله كان شارب ومتنيل والشقة كلها دخان ريحته زي ما يكون حشيش ومش مركز. بكلمه ولا كأنه سمع حاجة وقفل الباب في وشي.

- وسيبته؟!

ينظر فؤاد حول نفسه وإلى الدوائر على الحائط ثم يُكمل:

- خبّطت ع الباب تاني، وإتفتح لوحده ندهت عليه أكتر من مرة ماردش! الفضول كان هيقتلني نفسي أعرف بيعمل إيه. يا دوبك خطوتين وصلت لنفس المكان اللي واقفين في ده،وحسيت إني متكتف وروحي بتتسحب مني. قاومت وأنا حاسس بنفسي بيضيق والمكان بيلف بيا وطلعت جري وأول ما نزلت سلمتين الباب اترزع!

- مممممممم طب والمدام ماتعاملتش معاه خالص؟

- المدام مابتخرجش م الشقة.

- قصدي ماخبطش هو عليكم، وهي فتحت وطلب حاجة مثلًا سأل على شوية ملح. يعني؟!

- لا يافندم.

– طب شكرًا جزيلًا يا أستاذ فؤاد. بس برضه هحتاج أقعد مع المدام، وحضرتك طبعًا أنت سيد العارفين بقي مش أنا إن ده تحقيق رسمي!

يتململ فؤاد ويومئ بالإيجاب بهزة من رأسه.

يصافحه هشام مودّعًا بعد التأكيد أنها دقائق، وسوف يكون موجود بالأسفل.

يدخل عم خالد رافعًا يده إلى جانب رأسه في تحية شبه عسكرية بقميصه المشجر الغامق، وذقن غير مُهذب تميل للبياض، وعينين ضيقتين واهنتين ورأس أصلع من المقدمة وجبهة تعلوها زبيبة الصلاة.

يبدأ بالحديث بصوته العالي وأسلوب مرح يُميزه من بين الجميع هنا في المنطقة:

– معالي الباشا. إزي سعادتك. لعل معاليك بخير.

– إزيك يا عم خالد. معلش مسهرينك بقى!

– لا يا باشا اطمن أنا بتاع السهر أساسًا!

– حلو! قولي بقي علاقتك بالجدع اللي مات ده؟!

– هو مش مقتول ولا أنا بيتهيألي؟!

– أحبك وأنت متابع! تاخد سيجارة؟

– ما أكسفش إيدك ياباشا.

يتناول السيجارة، يُخرج قداحته فتسبقه يد هشام، وهو يشير برأسه:

– عندي الواجب ده.

فيربت عم خالد على كتفه، ويأخذ نفسًا عميقًا يُخرجه للأعلى في استمتاع ثم يبدأ:

– بص سعادتك. بلال كان مش مفهوم تمامًا! يعني كان بيترل أوقات الصبح ولابس بدلة أو قميص كرفاتة وأحيانًا تيشيرت بس عادي اللي مش عادي هو بالليل ليه ستايل عجيب، وكل ليلة يترل شوية ويجي ومعاه حد بس تحس ان في ناس منهم يعرفوه وناس منهم أول مرة يقابلوه وكلهم أول مرة يهوبوا هنا.

– والناس دول كبار ولا صغيرين وأشكالهم إيه؟

– لا سعادتك كلهم شباب في نفس سنه أو أصغر.

– وكانوا بيتأخروا على كدة فوق بقى؟

– آه ممكن بالساعتين، ولا حاجة.. إلا في مرة واحد معاه وكان طويل أوي ورفيع ولابس نفس الإستايل بتاعه وأقل من ربع ساعة ونزلوا سوا وخمساية ورجع بلال تاني وطلع.

- بس أنت مركز لكل حاجة مع بلال ليه كدة يا عم خالد. بتعزه للدرجة دي؟!

- هههههههه لا سعادتك بس كان في الطلعة والنازلة يشتري مني حاجة. تحس إنه عايز يعرفني ويطمني.

- يطمنك على إيه؟

- مش عارف بس مفيش حد كل ما يترل أو يطلع بيته يشتري بيبسي ولا لبان ولا بسكوت ولا إيه؟

- أها.. طيب، ماسمعتوش اتخانق قبل كده مع حد من العمارة أو في المنطقة أو حد اشتكى منه؟

- الشكوى كتير يا باشا أنا نفسي كنت بلوم عليه عشان الإزعاج اللي بيعمله.بس يمكن مدام أستاذ فؤاد كانت دايمًا تشتكيلي، وهي بتشتري مني، وإنت عارف سعادتك الحريم - لا مؤاخذة - مفيش حاجة تعجبهم.

- طب، وأستاذ فؤاد نفسه متخانقش معاه مثلًا ولا حصل كلام؟

- لا فؤاد ده راجل في حاله لا ليه في مشكلات ولا خناقات.

يشكر عم خالد بعد أن ربت على كتفه ويخرج من الشقة.

يخرج جسد بلال بعدها بلحظات محمولًا على ترولي، حيث تشريح جثته مع زملاء الطب الشرعي. ينظر هشام حوله أكثر من مرة كأنه يبحث عن شيء يعلم بوجوده.

- هل رأيت هذا؟

الخطوط السوداء العريضة تتقلص! تشبه البحر الذي ينضب فيتبقى فيه قطرات على رمل ناعم. هكذا هي! تظهر كلمات بلغة غريبة. تبدو عبرية.

ينقطع التيار الكهربي. فيظلم المكان تمامًا. ويعلو صوت تعرفه جيدًا. استمعت إليه منذ قليل.

- أصبت! هو بالضبط.

***

يختار القدر فريسته، والأخيرة أيضًا تتحرك بنفس السرعة تجاه القدر. ظُن كما تريد أن تختار. سوف يحدث هذا على فترات طويلة لن تُدرك وقتها أنها خطوات تسير وفقها إلى أن يحدث ما أرادته اللعبة.

***

اكتب كما لم تكتب من قبل يا جيتاريست. قصة الاصطفاء الأبدي. خُط سطور القدر. نِعمة ونقمة على من اصطفاه.

- ما لي لا أدري ما أقول؟!

يقولها الجيتاريست وسط الظلام الحالك ورأسه إلى اليمين تنظر إلى ما لا تراه أنت.

يُتابع الصوت بنفس وحشيته وذعره.

تقول ورقة التاروت ما لا تقدر على قوله.. ضع الأوراق على دوائر الوجود والملكوت.

أطْلِقْ عنان الدماء السوداء على الأوراق وبريشة غراب سوف تُمليَ ما تُدون.

ارسم بوابات مفتوحة بأرقام أسرت شياطينها لتُعلمك ما لم تكن تعلم.

- مَن؟!.

- سوف تعرف وقت خلاصِك!

يري الجيتاريست بقعة ضوء بعيدة يظهر منها أنى تسير مُتمايلة بليونة مُثيرة. يشهق عن آخره حينما يتبين وجهها. الذي يحفظ تفاصيله.

قبل أن يقتحم المكان باقي الرفقة السوداء ليختفي كل شيء وراء سواد دامس وأصوات صراخ حتى تختنق الصرخة في الحلق.

ويحدث ما تعلمه ورأيته منذ قليل.

***

يرتكز هشام على الحائط مُحاولًا استرجاع ما حدث. لا شيء! انقطع التيار وعاد خلال لحظات. خُيل إليه أنه رأى أشباحًا ووجوهًا وأصواتًا تتحدث عن الجيتاريست وأوراق وسحر. يخرج ويُغلق باب الشقة وراءه.

يشم الهواء حينما يصل إلى الشارع ويجد جسد بلال يدخل إلى سيارة الإسعاف وسط تجمع أهل الشارع. يستعيد هيبته مرة أخرى ونظرته الجادة وهو ينظر إلى التجمع وهو يرى أنثى تسير مُتمايلة بليونة مُثيرة تقترب منه وتسأل مُستفسرة "هو في إيه يا باشا؟"!

ينظر لها بعين زجاجية لا تحمل مشاعر. يُحاول أن يربط بين ما ظن أنه رآه، وبينها. لا يُجيب بعد أن تحولت نظرته لكلمة واحدة "غوري!" تتركه وتتحرك إلى عم خالد وتسأله:

- هو مش في شيخ هنا اسمه الشيخ بلال يا أخويا؟!

ينتفض هشام فينظر لها بسرعة، فيرى عم خالد يرص بضاعته وهو يُغني "أنا أنا مش عارفني" ولا أثر لصابة الجسد اللين.

***

"تم تقييد القضية ضد مجهول"

***

أحمد عمرو



خاتم أندرو الفِضي



اليوم حصل "أندرو" على خاتم فضي مكافأة تُفوُّقه في الصف الرابع المتقدم، تفوقت أنا الآخر لكني لم أنجح في الحصول على أبوين كاللذين حصل عليهما "أندرو".

يجعلان خنزيرهما مميزًا، وهو الأحمق ذو أذني القوارض، وأنف الماموث.

لم أغفر له دراجته بعد، حيث كنا لا نزال أطفالًا تمنيت لو أن ابتلعه النهر بها وقضى على جرسها المميز وصاحبه، وظللتُ أنتظر وأنتظر فلم يفعل النهر، فظننت أنه يخشى أن يلوث طينه بكيس الروث هذا. ومضى نهار يعقبه ليالٍ وجرس "أندرو" يسرح في البلدة مغردًا لا يكل ولا يصدأ بل يزداد عذوبة وازداد بغضًا.

– أقسم لك، أنه يُضيء في النهار يا أمي. إنه يسبب لي الجنون كلما رأيته، أرجوك يا أمي، أرجوك، أريد مثله.

قلتها راجيًا وأنا أضع أولى كسرات الخبز جانبًا على الطاولة في عصيان حرصت على ألا تستشعره فتسوء عاقبتي، غير أن أشياء من ذاك القبيل ما كانت لتمر عليها، فحدَّجتني بنظرة صارمةٍ ثم زمجرت غاضبة:

– سااام. لا طعام لك أنت مُعاقب اليوم، اترك الخبز كما هو، وقُمْ.

فقمتُ على الفور، في حالاتها هذه خير الأمور الهرب، إلا أنها باغتتني من الخلف مكملةً:

– وانسَ أمر الأرجوحة، فاليوم عليك طلاء سور الفناء الخلفي بأكمله عِقابًا على ما أجرمت.

***

وانتصف النهار، وكان اليوم يدين بالولاء ليوليو بأوج حرارته، فأصبحت ملابسي عصرة، وأنا أعمل على فرضي، وكان "أندرو" متكئًا على جزع "توتة" تقيه لفح الظهيرة. كان عنيدًا مقدامًا ولديه من الجراءة قدرًا وافرًا، وكنتُ أُضاعِفه حجمًا، وعرض المساعدة فرفضتها وفكرت في أن مساعدة صغير الخنزير ذلك عار لست بحاجة إليه وظلّ يُراقبني وأنا أعمل، وبرق خاتمه، فأغرى عيني، وعدتُ إلى سابق تفكيري به. وقال لي:

- مانويل.

وهو يتحسس طريقًا لمواساتي:

- إنه الأمر سام واسرقه.

وكنتُ أغسل عني أثر أو اثنين لطلاء علق بي.

عرّفني "أندرو" على "مانويل" وفضلت الأخير وفضلني وباتت رفقته ملاذًا ألوذ به من مثالية "أندرو"، فهو يشاركني أحقادي، وأشاركه تفكيره، ولمعت وعززت فكرة السرقة، ولاحت في مُخيلتي صورة لخاتمي، وقلت وأنا أحكُّ بقعة طلاء عن ملابسي:

- ماذا وإن رآه بعدها.

- أين سيراه؟

- حين أضعه في يدي.

- حسنًا، قلتَ في يدك؟

ولمع بدهاء، ووجدت جملته طريقًا إلى نفسي.

***

وراودني خاتمه في منامي.

***

ولم يكن عسيرًا عليَّ استدراج "أندرو"،واغتصابه في خاتمه دون أن يشعر بنا أحدٌ، خاصة ونحن هنا في "كينجسلي هاوس" التي يتجنبها الجميع. تلي مقابر "كانتي" مباشرة ضِفافُ نهر "منتربال" وهو خلاء مناسب يسمح لنا بلعب الكرة دون أن يتحرش بنا ملعون ال "كينجسلي" المنزل الذي أتى على أصحابه وبقي هو، الرفاق يخشونه، ويبكون لسيرته وأنا مثلهم، ويسحرني خاتم "أندرو" وتبكيني سيرته.

***

وانبلج الصباح فتلاقينا، ورهبت، ونحن نقترب من ساحة "مونتربال"، ووجدت أني لا أملك طريقة للاستيلاء فقط جلبتنا إلى هنا، وكدتُ أتراجع لولا أن رأيت مرادي، وأغراني فرسخت أوصال عزيمتي ولعبنا وقال وهو يلهث:

– لا تركل الكرة بعيدًا سام، سيبتلعها النهر هكذا.

ووكز حديثه عقلي، فركلتها بما أوتيتُ من عزمٍ، فاتخذت طريقًا إلى النهر واتخذ "أندرو" الطريق ذاته، وقبل أن تسقط اتخذت مسارًا آخر اختارته هي أو الأحرى القول إنه اختارها لو كانت عاقلة ما تمنته لنفسها، وما كان سلكه "أندرو" لولا شجاعته، وأخذت مقربًا من سور منزل ال "كينجسلي" ومرقت من أسفل الباب المعدني لحديقة المنزل، ووقف "أندرو" متلجلجًا وقابلني بنظرة حائرة، وأنا أبولُ في سروالي فزعًا ورعبًا، فلم يجد مني ردًّا، ولما استيأس مني دلفَ يعبُرُها في حرصٍ شديد، بعدها وكأنه العدم.

وانتصف النهار، ومضت ظهيرةٌ، وأقبل مساءٌ، ولم يقبل "أندرو" ولم أبرح، آملًا في عودته حتى حلّ الظلام، وتيقنت من أن لا سبيل ولا مرجع له، وحين هممتُ بالذهاب سمعت صوت امرأة يُناديني بنبرة بيطئة ميتة:

– ساااام.

فتملكني الرعبُ، ووليت المترل دبري وعدوتُ مُرتعبًا.

***

وراودني "أندرو" في منامي.

***

ورأيت "مانويل" يوشي بي في آخر.

***

وأتاني النداء في ثالث.

***

وامتزج نداء نومي بنداء أمي، وحرت بينهما حتى أتت زمجرة أمي غاضبة :

– ساااام. أيها الكسول قم وأخبرنا أين "أندرو" إن كنت تعلم.

وتجمّدت أوصالي،وارتعب فؤادي، وبكيتُ وأنا أسمع خطوات أمي مبتعدة، وبعض أصداء لأصوات تأتي من الأسفل لأناس يتداولون.

***

أمي ووالدا "أندرو" والشريف والحاخام وآخرون كانوا في منزلنا يتطلعون إليّ وأنا أرتجف، ارتصَّت مقاعدُهم في حلقة تسمح لهم جميعا برؤيتي،وأنا أُستَجْوَب كانت والدة أندرو هي المبادرة بالحديث وقالت مؤكدة لحديث ظهر أنه تداول مسبق بينهم:

– أجل كان بصحبته، قال إنه ذاهب لملاقاته حين غادر.

ولم يجدوا مني منطقًا، كنتُ أرتجف وأنا أحاول التماسُك وعدم البكاء حتى لا أثير شكوكًا حولي، وسألني الشريف سؤالًا تكرر فأجبت إجابة ترددت وقلت وأنا أتماسك:

– انتظرته ولم يأت.

***

ورأيت "مانويل" يوشي بي في منامي.

***

وأتاني النداء في آخر.

***

صباح نهارٍ ثانٍ من الحادث اشتدَّ البحث، واستجوب آخرون، فلاح لي شبح "مانويل" يوشي بي، فعزمتُ التسلل إلى ملعون ال "كينجسلي" والبحث عن "أندرو."

***

تسمرت أمام البوابة الحديدية أُقدِّم قدمًا وأؤخرها ثانيةً، ونما إلى مسمعي صوت العجوز مجددًا يُناديني، فدلفت في حذر، ولفحت أنفي رائحة عطنة. كان المترل ميتًا. نوافذ محطمة الزجاج ويغطي التراب جدرانه، فتحولت إلى الرمادي، وله درجات رخامية كانت بيضاء تصعد إلى باب المترل، وكانت تقف أعلاه عجوز ارتعبت لرؤيتها تبتسم بأسنان متشابكة وشعر أشعث.

كان الزمن قد أخذ من وجهها مأخذه، وكانت ترتدي رداءً أبيض باليًا، حدَّجتني بنظرة خاوية، ثم أشارت لي باتِّباعها، ومرقت إلى الداخل ودلفت في إثرها.

***

كان ضوء النهار يولج من النوافذ فرأيت عظامًا متفرقة وأثاثًا تفحم لونه أسفل أطنان من التراب وخيط العنكبوت، وأرضًا تتزحفها الحشرات وشعرت بتصارُع دقات قلبي مع قفصه خفقانًا وأنا أفكِّر في حقيقة العجوز وتصديق فرضية كونها ميتة، كانت الأخيرة تنتظر بدبرها ولم تتزحزح حتى شعرت بقدمي تتقدمان وعبرنا الرُّدهة.

في البهو اطمأنَّ قلبي. كان التراب يطول كل شيء عدا مائدة الطعام التي تراصَّ عليها لحمٌ شهيٌّ له رائحة طيبة في أطباق خزفية، وكان حذاء "أندرو" كذلك جار الجدار. وكان هناك على دولاب المائدة شموع وشعر مُستعار مُركّب على ما يبدو، وأنه هيكل حجري، وارتبت عندما أشارت لي العجوز نحو المائدة، وتساءلت، وفكّرت في إجابةٍ منطقية، فقلت في خاطري: "إنها صماء". وردَّ خاطري:

"فمن ناداك."!

أشارت مجددًا، فامتثلتُ وشرعتُ أتناول لحمًا لم أذق ما يماثله طول ما حييت، فنسيتُ توجُّسي وسلمت بسلام ممتع، وكنتُ أمضغُ المزيد من اللحم الملفوف حين شعرت بشيء صُلب يهاجم ضرسي ويسبب له ألمًا، ففتحت فمي ودسستُ أصبعي متحسسًا، فأمسكته وخرجنا معًا، وإذ بي أواجه ما لم يخطر لي بالٌ به، وانعكس الضوء على عيني، وتضارب شعوري بين سرور وفجعٍ، ودقّقت البصر مشدوهًا. كان بين أصابعي "خاتم أندرو الفضي". وأمعنت وانفرجت أساريري ونسيت الخوف، فعاد حين استدار لي الشعر المُستعار ووجدت رأس "أندرو" يغمز لي.

***

أحمد سلام

إبليس ينتصر



أنا أمجد الدميري، أعشقُ السير والرياضة وخصوصًا أن النظام هنا يعطينا الحق بساعتين فقط خارج العنابر، نعم أنا مسجون، نزيل في عنبر 3–أ، اليوم يوم غير عادي، لقد اتفقت مع باقي نزلاء العنبر التسعة أن نلعب لعبة الزجاجة، وعندما تقف أمام شخص يروي لنا سبب دخوله السجن، ها هم أصدقائي في العنبر تبقى ربع ساعة عن انتهاء فترة التمرين، ونعود إلى العنابر؛ لذلك سوف أكمل السير وحيدًا ونلتقي في العنبر.

نحن الآن في المساء، نجلس على شكل دائرة، وها هي الزجاجة في المنتصف، يُمسك باسم الزجاجة ويلفه بيده لتقف أمام الشيخ ياسين الذي ابتسم وقال:

– كنتُ أعلم أنني سوف أكون الأول.

الشيخ ياسين متوسط الطول 176سم 80 كيلوجرام، أبيض الوجه، يشبه الأجانب، والغريب أنه شيخ جامع، سند الشيخ، ظهره على الحائط، وبدأ يسرح بخياله فيما حدث معه أنه كان يوم جمعة بعد الصلاة، ذهب لشقة الحج صابر التي تقع بعد المسجد بشارعين تقدم الشيخ للداخل، ورحَّب به الحج صابر وزوجته وأولاده، أحمد في الخامسة والثلاثين من عمره، ومحمد في الثامنة والعشرين من عمره، وإيمان في العشرين من عمرها، تحدَّث الشيخ ياسين والحج صابر عن الحالة التي هو بصداد مقابلته، وهي ابنته الصغيرة التي لم تتعدَّ الخامسة عشرة، وتحدث الحاج صابر عمَّا فعلته ندى بنته من أصوات غريبة تخرج من غرفتها وروائح كريهة أيضًا حتى اعتدائها على أخواها وأمها بشكل جنوني، تحركِ الشيخ ياسين ناحية غرفة ندى، ودالف للداخل ليجد ندى على الفرش، تجلس وأمامها على الفِراش الكثير من الحشرات بمختلف أنواعها، وتتغذَّى ندى على هذه الحشرات، تحرَّك الشيخ ياسين بغضب نحو الفِراش، وأمسك طرف الملاءة، وألقى به على الأرض بكل الحشرات التي كانت عليه؛ ممَّا أغضب ندى غضبًا شديدًا، ونظرت بتجاه الشيخ ياسين نظرات نارية، ثم ارتفعت في الهواء بجسدها الضئيل لتهجم على الشيخ ياسين الذي أمسك ذراعيها بقوة وهو يقرأ القرآن مما زاد من غضبها وجنونها؛ مما جعل قوتها تزيد لتحكم قبضتها على عُنق ياسين وهي تلهث بكلام غير معلوم اللغة، ولكن الشيخ ياسين استجمع قوته وأبعد يديه عن عنقه

وقراءة أية الكرسي بصوت قوي؛ مما جعله يحرك أظفار يديه على وجهه، وتحدث إصابات بالغة، فقذف به بعيدًا عنه ليرتطم رأسه بالحائط وتسقط بلا حركة وهذه كانت جريمة الشيخ ياسين، ندى ماتت، واختفى الجن المسيطر عليه، وجاءت الشرطة ليروي لها ما حدث، ولكن الشرطة لا تعترف بمسِّ الجن، وبشهادة الحاج صابر الذي أكد كل ما قاله الشيخ ياسين، فكانت هذه الشهادة ضد الشيخ، وليس في مصلحته، وتم اعتبار الجريمة قتل خطأ لنفي نية الترصُّد وبذلك تم الحكم على الشيخ بسبع سنوات يقضيها بسجن العقرب بعنبر 3–أ.

نظر الجميع لبعضهم البعض، ولكن لم يتحدث أحدٌ، فلقد كانت قصة غريبة بعض الشيء، ولكن ما سوف يأتِي هو أغرب من ذلك، وتدور الزجاجة مرة أخرى لتقف أمام توفيق الدمياطي، إنه ليس من دمياط، إنه من مواليد القاهرة، ولكن اسمه هكذا، وبدأ توفيق في سرد قصته وهي:

توفيق الدمياطي من مواليد القاهرة 1972 أنعم الله عليه بجسد ممشوق، عريض المنكبين، طوله لا يقل عن 190 سم، ووزنه 95 كيلوجرامًا، يعمل حمَّالًا (شيَّالًا) في وكالة الشبرواي للعطور، وذات يوم جاء رجلٌ أنيق، اشترى من الوكالة أشياء كثيرة، وجلس بعربته الفارهة، وكنتُ أنقل البضاعة من الوكالة للعربة حتى توقفني بكلماته وقال:

– أتريد الاستمرار هكذا طيلة عمرك؟ أنت قوي، ولك عندي عمل سيأتي لك بكثير من المال.

زاغت عيناي من أثر كلامه، وقلتُ له:

– أي عمل ما دام سيأتي بمال، فأنا معك.

قال لي:

– هل وضعت البضاعة كلها؟

قلتُ له:

– نعم، لم يتبقَّ سوى هذا الكيس الكبير.

فقال:

– أحضره، وتعال اركب معي اليوم، غدًا سوف تركب عربتك وحدك.

وبالفعل ركبت معه، نهبت السيارة الطريق نهبًا حتى وصل أمام فيلا كبيرة، يبدو عليه أنه عفا عليه الزمن ترجَّل عن السيارة، وأشار لي بحمل البضاعة، وأن أتبعه، وبالفعل عندما دخلتُ هذه الفيلا كانت قصرًا وليست فيلا، تُحُفٌ في كل مكان، كلُّ شبر في القصر يعد تحفة فنية برغم أنني لستُ على دراية بالتُّحف والأنتيكات،ولكن إنها تظهر جليًّا، تحرَّك الرجل الذي أجهل حتى اسمه نحو تابلوه كبير تحت السُّلم

المؤدي للدور العلوي، رفع التابلوه وحرَّك شيئًا في الجدار ليفتح سردابًا كبيرًا أمامه ينغمس بداخله سريعًا ويختفي ويأتي صوته يقول:

– هيا يا رجل، أسرع.

فتحركت بسرعة خلفه، فلقد كان سردابًا كبيرًا به سلمٌ إلى أسفل مضاء على جوانبِه بشعلة النار لا أدري كيف أشعل كل هذه المشاعل في هذا الوقت الصغير؟

تحرَّكت خلفه لمكان يبدو كغرفة واسعة، يتوسطه كتاب ضخم يوضع على مقرأة فخمة مزينة بنقوش غريبة الشكل، وطلب مني وضع كل الأشياء على منضدة، كانت على الجانب الأيمن في الغرفة، وتحرك نحو شماعة لم آخذ بالي منها، معلقًا عليه رداء يشبه رداء المحامين ارتداه وبدأ يمسك بالعطارة التي اشتراه من الوكالة ويدمج بعضها ببعض في مهارة غريبة، ثم طلب مني إحضار وعاء كبير كان مركونًا بجانب الحائط، أحضرته وألقى بعض الكلمات الغريبة، ثم وضع الكثير من الأشياء في ترتيب غريب، لا أعلم ماذا يفعل، لكيلا يسألني أحدٌ أنا شيال بسيط، ليس أكثر، ثم طلب مني التقدُّم لكي أقف أمام الوعاء الذي بدأ يخرج منه دخان غريب رغم أنه لم يشعل به النار، لقد كان الدخان لونه أخضر، ثم تغيَّر للون الأسود الأدكن، ثم عاد إلى الكتاب، وبدأ يقرأ منه، أعتقد أنه تعويذة ما، فقلت له:

– ماذا تفعل أريد الخروج من هنا.

وتحركت نحو السلم صاعدًا إلى أعلى، ولكن في هذه اللحظة أطفئت المشاعل، وأغلق الباب مصدر صوتًا هائلًا، عدتُ له فقال لي:

– أنت تريد المال، وأنا سوف أعطيك أكثر مما تريد.

وأكمل القراءة ولزمني الصمت.

لقد كنت طامعًا في المال، لقد تعذبتُ في حياتي كثيرًا، كل أقاربي ومعارفي تخلوا عني بعد موت أبي وأمي، بدت أعمال أي شيءٍ لكي أجلب مالًا يُوفِّر لي طعام وجبة واحدة في اليوم من حقي أن أعيش بأي طريقة، لا بد أن أعيش.

وهنا انتهى هذا الرجل من القراءة، وتحوَّل الدخان وتشكَّل على هيئة بشرية، تقدَّم نحو الرجل، والرجل يلوح له بيده، ويقول:

– مرحبًا أنا هنا خذني.

تقدَّم هذا الدخان حتى وصل للرجل، وبدأ يتغلغل بداخله بشكل مرعبٍ حتى سيطر عليه تمامًا، وهنا نظر ناحيتي، وقال:

– الآن دورك.

نظرت له بخوف، وقلت:

– ماذا تريد مني؟

طار مسافة لا تقل عن خمسة أمتار ليستقر أمام وجهي أنفاسه تختلط بأنفاسي، وهو يقول:

- أنت الأضحية لكي تكتمل هذه التعويذة يجب أن يتم التضحية بدم بشريٍّ.

وصفعني على وجهي، فطرت مترين للخلف لأرتطم بالحائط، وأسقط أرضًا علمت أنني هالك لا محال لذلك بقيت في الأرض، تحرك نحو منتصف المكان، وأخرج من جيبه طبشورة، وبدأ يرسم دائرة، وكتب داخله حروفًا وأرقامًا، ثم تحرَّك نحوي، وأمسك بقدمي، وتحرَّك نحو دائرة ووضعني بداخله، وتمتم بكلمات غير معلومة، ليبدأ البرق والرعد في المكان ليختفي سقف المكان، وتظهر غيوم كبيرة، ويُخرج من جيبه خنجرًا شكله غريب، ويتجه نحوي، وبالطبع كان سوف يقوم بذبحي، ولكن أنا أخرجت مُدية من جيبي وأخفيتها، وبحركة سريعة عندما انحني ليمسك برأسي جرحت يديه ليسقط الخنجر، ثم وضعتُ المُدية في عُنقه ليبتعد عني في ذهولٍ، ويصرخ صرخةً عاليةً قويةً ما زلت حتى الآن أصحو من نومي على صوتها، ثم يخرج منه هذا الدخان الأسود ويختفي وتختفي معه كل الغيوم؛ ليسقط جسد هذا الرجل الذي قتلته دون معرفة اسمه على الأرض جثة هامدة، تحركت سريعًا للخروج، ولكني لم أجد طريقًا لذلك، فأمسكت بالوعاء الكبير، وقرَّرت أن أكسر هذا الباب المخفي، ولكن مع ضرباتي المتتالية دون أي تأثير في الباب سمعت صوتًا بالخارج.

صرخت لكي ينقذوني من هذا المكان، لقد كانت الشرطة هي مَنْ فتحت الباب بعد الكثير من الوقت، رويت لهم ما حدث، لم يصدقني أحد، واتفق الجميع أنني وهذا الرجل كنا هنا لسرقة هذا القصر،

وقتلته طمعًا في نصيبه، وهأنا هنا أقضي عقوبة السرقة عشرة أعوام أفضل بكثير من التضحية بي، أليس كذلك؟

***

– ما هذا الذي أسمعه؟ جِنٌّ وساحر! ما هذه الروايات الغريبة؟

وهنا توقفنا، صوت صادر من العنبر، إنه شيء يزحف على الحائط، كلا ليس فأرًا، لقد تم تجديد المكان، وأصبح نظيفًا بحقٍّ، ثم إنه صوت لشيء أكبر من الفأر، ويزحف ثم فجأة توقف الصوت لنعود، ونستكمل لعبتنا التي أصبحت مخيفة.

***

تحركت الزجاجة سريعًا قبل أن تقف أمام صبري أبو الوفاء.

لقد بدأت قصتي أيام ما كنت في الثانوي العام، أيامه كنتُ أسهر طول الليل أُراجع دروسي، لقد كانت الامتحانات، وشيكة وفي ذات ليلة شعرت بسخونة في غرفتي شديدة لدرجة أني تخليتُ عن ملابسي، وجلستُ بالملابس الداخلية فقط، وبعد قليل غلبني النومُ، فنمتُ وحلمتُ بأجمل فتاةٍ رأيتها في حياتي، وبطبع إني شابٌّ مراهق، ولي مُتطلبات، فقد فعلتُ معها كل شيءٍ، حلمت بتجربته، وتعدَّدت اللقاءات حتى أنني أصبحتُ مدمنًا لها لم يحدث بيننا أيُّ حوار، لقد كانت معاشرة جنسية فقط، وفي يوم من الأيام ظهرت علي علاماتُ

المرض، ومصادفة كان جدي يزورنا فجلس بجواري، يتحدث معي، ويعطيني الأدوية التي وصفها الطبيب، وجدت أنها فرصة لأخبره بما يحدث لي، فنهرني بشدة، وطلب مني ألّا أجاري هذه الأحلام، لأن من تأتي لي بصورة الفتاة الجميلة ما هي إلا شيطانة تريد أن تمتلكني، وبالفعل كنت مدمنًا له؛ ولذلك قررتُ أن أبتعد عنه، وطبعًا قام جدي بنشر الموضوع الشائق على المجتمع العائلي لديَّ: أبي وأمي وإخوتي وأعمامي وغيرهم، وكان الحل من وجه نظرهم أن أتزوج في هذه السن المبكرة؛ حتى يحفظوا ابنهم من النداهة التي تناديه يوميًّا.

وبالفعل تزوجت بعد الامتحانات ببنت عمي، وكانت في مثل سني تقريبًا السادسة عشرة،أو السابعة عشرة، لا أتذكر، اختفت الشيطانة من حياتي طوال أول شهرين من الزواج، ولكن عادت مرةً أخرى، ولكنها لم تعد في أحلامي فقط إنما عادت في واقعي أيضًا.

لقد كنتُ أجلس أُشاهدُ التلفاز وتأتي زوجتي تحدثني، وتغادر للمطبخ، أستشيطُ غضبًا، وعندما أذهب خلفها لأعنفها تُقسم لي أنها لم تخرج من المطبخ.

مرةً أخرى أشاهد زوجتي بأبشع الأشكال، مرةً محروقة، ومرةً مقتولة، ومرةً مشنوقة، وكنتُ عندما أشغل القرآن في البيت يصاب المترل بالجنون، فترتفع الكراسي، وتنفجر اللمبات، وتشتعل النار من العدم، حتى أُسكت الراديو، فيصمت كل شيء ويهدأ.

لقد كانت حياتي جحيمًا..

ذهبت لرجل انتشر عنه أنه قادر على التعامل مع مثل هذه المواضيع، وبالفعل أخذ مني عشرة آلاف جنيه، وأعطاني مسدسًا، وأخبرني أن هذا المسدس به تعويذة سحرية، عندما أشاهد هذه الشيطانة أطلق عليه الرصاص فينتهي أمره تمامًا.

وبالفعل كنتُ جالسًا على الفِراش، وزوجتي كانت تضع الملابس في الدولاب بعد أن قامت بتنظيفه، وهنا ظهرت الشيطانة خارجة من المرآة، وتحركت أمامي حتى وصلت عند زوجتي، وأخرجت خنجرًا لامعًا ومدت يديها لتنحر عنق زوجتي من الخلف، تحركت سريعًا لأمسك بالمسدس،وأطلق منه الرصاص.

لقد أفرغت الست رصاصات بها، ولكن التي سقطت ليست الشيطانة، وإنما زوجتي، فلقد كان هذا الدجال ينفذ تعليماتها، فلقد أجبرتني على قتل زوجتي، وكما المعتاد لم يصدق أحد روايتي، وهأنا هنا أقضي عقوبة المؤبد، بسبب تلك الشيطانة.

***

لقد خرجَ الموضوع عن الاحتواء، هذه ثالث رواية يكون به دور لشيطان أو جِن، ماذا يحدث هنا؟ لقد بدأتُ أرتابُ قليلًا، ربما هم يكذبون، ولكن ما الداعي؟ وما الفائدة من هذا الكذب؟ عمومًا لا بد أن نكمل اللعبة، وتحركت الزجاجي حتى وصلت أمام رامي العايدي،

لقد كان رامي شابًّا في التاسعة والعشرين من عُمره، مفتول العضلات، ضخم الجسد، ولكن عقله صغير جدًّا، وهنا أنا سوف أتوقف، ويبدأ رامي في سرد قِصته.

***

في الفترة الأخيرة قبل أن يحدث ما حدث، كنت أرى الكثير من الأحلام، معظمها لحيوانات شرسة تتحول لرجال دميمي المنظر، كنتُ أعاني كثيرًا من هذه الأحلام التي كانت تنغص عليَّ نومي، إنه عامي الثامن والعشرين، لم أتزوج بعد، وأعيش مع أبي وأخي في المترل، ظللتُ أيامًا طويلة لا أنام سوى ساعتين بأقصى تقدير، لقد تدهورت صحتي تمامًا حتى أنني كنتُ أذهب لطبيب نفسي، ولكن لم يكن هناك تحسُّن ملحوظ، لك أن تتخيل إنسانًا يأخذ منومًا، المتبع أن يسقط في النوم مدة لا تقل عن ثماني ساعات، ولكني لا أنام سوى ساعة واحدة، نعم بدأ كل شيء في الانهيار، وبعد عدة أيام لم أعد قادرًا على النوم تمامًا، أيام طويلة تمر بدون نوم، قواي تخُور، اتجهت للإدمان، كنتُ أسير في هذا الطريق بجنون، كل ما جاء أمامي أخذته، ولكن كل هذا لم يشفع لي عند سلطان النوم، وفي تطور جديد فيما يحدث أصابتني نوباتُ هيجان عنيفة، كنتُ خلالها لا أدري ماذا أفعل لم يصدقني أحدٌ من عائلتي بخصوص الأحلام أو الكوابيس التي دمرت حياتي، وأرجع الجميع أن ما يحدث لي بفعل المخدرات، وفي يوم طلب بعض الأصدقاء مني الخروج، وشم بعض من الهواء العليل، وبالفعل

خرجت معهم، كان اليوم جميلًا، كنا في الأزهر بارك، ولكن دائمًا يقال مثل شعبي: (الحلو ميكملش)، لقد أصابتني نوبة هيجان شديدة، هجمت على أصدقائي في بدء الأمر، اعتقد الجميع أنني أداعبهم، ولكن مع تطوُّر الأمر، وحدوث إصابات بالغة بدأ الخوف يسيطر عليهم، تم اعتقالي من جانب الشرطة، ووضعي في مشفى الأمراض العقلية، ولكن حدث شيء غريب جدًّا، لقد اختفت الكوابيس، وكنت شخصًا عاديًّا جدًّا، وأتصرف بعقلية واعية لذلك خرج تقرير المشفى بأني مدمن مخدرات، فقط وبعد ثلاثة أشهر وهذا زمن قياسي لشفاء المدمنين تم إيداعي هنا بصحبتكم لتنفيذ حكم شروع بالقتل، والحكم علي بثلاث سنوات بعد التخفيف.

تساءل الجميع ما سر تلك الكوابيس؟ ماذا حدث لرامي؟ هل رامي بالفعل مجنون؟ ولكن أنا هنا منذ أكثر من سنة ولم أشاهد رامي في أي حالة غير طبيعية، المهم الآن استمرار اللعبة ما دمنا قد ابتعدنا عن الشياطين والجن.

***

تدور الزجاجة مرة أخرى لتقف أمام يوسف كامل الذي كان صاحب وزن زائد، إنه يشتهي الطعام، وقال يوسف:

إنه كان من عائلة ميسورة الحال، ولكن في لحظة واحدة تبدَّل الحال، الأب خسر أمواله في البورصة، وانتحر، والأم ساءت حالتها الصحية، وتبدَّلت الأحوال تمامًا، وكان يوسف وحيد أبويه، تحرَّك يمينًا

ويسارًا محاوله منه وهو في هذه السن الصغيرة لم يكمل عامه العشرين، ويحاول أن يرعى أمه، ويحضر لها الدواء، ولكن لم يستطع فالطريق أمامه كان مسدودًا دائمًا، مما جعله يسرق محلًا للجواهر بسلاح والده المُنتحر، ويخرج فرحًا بغنيمته التي سريعًا ما تصرف به وأحضر المال لعلاج أمه، ولكن كاميرات المراقبة اللعينة رصدت وجهه، وأُلقي القبض عليه، وشرَّف عنبر 3- أ. تدور الزجاجة مرة أخرى لتقف أمام نسيم، إنه المعلم نسيم البشبشي، تاجر خضراوات وفاكهة، طوله 175سم ووزنه 90 كيلوجرامًا، أسمر الملامح، في الخمسين من عمره، يُشبه معلمي الأفلام القديمة، والآن أنا سوف أصمُتُ وليتحدث المعلم نسيم:

لقد كنتُ أمتلكُ محلًا للخضراوات والفاكهة، وكنتُ ميسور الحال؛ لذلك تزوجتُ مرتين، وأنجبتُ خمسة أطفال، كلهم بنات لذلك استمررتُ في البحث عن الولد،وفي يوم من الأيام كان الأستاذ مسعود مدرس الرياضيات يُعطي بنتًا من بناتي درسًا في بيتي، وجاءت ابنته تريد منه طلبًا، لقد رأيتها، رأيت القمر، ذات التاسعة عشرة عامًا، لقد كانت أجمل بنات المنطقة بحقٍّ، تحرِّك بداخلي شيئًا، يقول لي إنها من ستأتي بالولد، كان اسمها داليا، تحركتُ كالمجنون أُحاول بكل الطُّرق أن أنال يد داليا، ولكن أباه رفض بشكل قاطعٍ وعلل رفضه بفارق السن، وإني متزوج امرأتين قبلها وغيروة وغيروة، ولكني لم يصل اليأس لي، تحركت في كل الطرق المشروعة وغير المشروعة وذهبتُ لمنصور المشعوذ، إنه أشهر دجال في بنها، أحضرت له صورها وأطلعته برغبتي في الزواج منها، ووعدته إن حدث ما أريدُ

سوف أُغدِق عليه من أموالي حتى يكتفي، وبالفعل تحرَّك الملعون بسرعة طمعًا فيما وعدته به، سلَّط أحد أعوانه من الجن على الأستاذ مسعودٍ بأصابه المرض الشديد ولم يكن له أحد بالمنطقه لذلك تطوّع كرجل شجاع للإنفاق على منزله، ومراعاة أموره لأظهر بشكلٍ جيد في عينيه، ولكن بعد كل هذا ظلّ على رأيه رافضًا فكرة ارتباطي بابنته تغيرت الإستراتجية، وقررنا التخلُّص من مسعود تمامًا، وفي أحد الأيام كان مسعود يجلس وحيدًا في منزله وداليا كانت بالخارج، صعدتُ بحجة الاطمئنان عليه، طبعًا استقبلني بفطور كبير، جلستُ على الكرسي المقابل لسريره، فلقد كان المرض ينهش جسده، تحدَّثت معه للمرة الأخيرة راجيًا موافقته على الزواج، ولكنه رفض، وعنَّفني بشدة؛ لذلك أمسكتُ الوسادة التي بجوار رأسه، وكتمتُ أنفاسه فكانت مقاومته ضعيفة نظرًا لمرضه، وانتهى أمره سريعًا، تحركت لمغادرة الشقة وجلستُ أمام المحل منتظرًا صوت داليا تصرخ على أبيها، وبالفعل حدث، وكنتُ أول المساندين لها، وأغمضتُ عينه ببراءةٍ، وأنا أقول:

لا حول ولا قوة إلا بالله، نعم أنا حقير، شيطان من الأنس، أعلم أنكم تقولون هذا، وبطبع لكي تكتمل المسرحية أحضرت طبيب الصحة، وطلبت منه إنهاء الإجراءات سريعًا بدون حتى أن يكشف عن المتوفَّى وبالفعل انتهى كل شيء، وبعد أربعين يومًا، كانت داليا عروستي الجديدة في منزلي، لم يعد أمامها غيري؛ لذلك كان من السهل زواجنا، وبعد سنة أو أكثر أنجبت لي ما كنتُ أتمناه، ابني نادر، كنت في قمة فرحتي، وأنا أشاهد نادر يكبر ويحفر اسمه في كل مكان

حولي: نادر نسيم البشبشي، لقد تغيرت الحياة تمامًا معي، لقد كانت كل طلباته مُجابة حتى وصل لسن السابعة، مَرِضَ مرضًا شديدًا، وانتقلت به من مشفى لآخر، ولكن دون فائدة، ذهبت لهذا المنصور المشعوذ مرة أخرى، وطلب أشياء كثيرة وفي الآخر قال لي: إن ابني تسكنه روح، وليست أي روح، إنها روح مُعذبة، إنه روح الأستاذ مسعود، ويريد الانتقام مني بموت ابني الوحيد.

أظلمت الدنيا في عيني، نظرات نادر لي تغيرت تمامًا، كانت يملؤها الكُره والحِقد والغِل، وفي ذات يوم صعدتُ من المحل، وكان الوقت متأخرًا في الساعة الحادية عشرة مساءً، وبعدما أغلقت الباب وجدت أمامي مشهدًا لم أتخيله في حياتي، وجدت نادر يمسك بسكينة مطبخ، ويضعها على رقبة أمِّه داليا، والغريب أن داليا كانت مبتسمة ابتسامة تشفٍّ وانتقام، وهو أيضًا يبتسم ويقول:

– لقد فعلت الكثير لتظفر بما تريد، لقد قتلتني وأخذت ابنتي البريئة لمستنقع حياتك الرث؛ لذلك سوف تعيش ما تبقّى من عمرك في ألمٍ شديد وتحركت يد نادر تذبح رقبة داليا في برود فتسقط صريعة على الأرض، فيطعن نادر قلبها بسكينه، والابتسامة لا تفارقه وهو يقول:

– سوف نتقابل مرة أخرى أيها الوغد.

طبعًا لم أستطع الحركة من مكاني من هول ما شهدته، وعندما حضرت الشرطة، تم توجيه اتهام لي بقتل زوجتي وابني، وهأنا هنا

أقضي عقوبة عن شيء لم أرتكبه، ولكني على اقتناع أنني ارتكبت ما هو أشنع منه.

ما الذي يقال؟ هل هناك بالفعل أرواح وأشياء من هذا القبيل، ربما فهذه الليلة تحمل الكثير في طياها

***

ولكن الآن، وبدون تأخير يجب أن تدور الزجاجة لتقف أمام سمير.

إذن فالدور عليك يا سمير،..

كان نسيم ضخم الجثة بحقٍّ، أنه في الأربعين من عمره أو يزيد قليلًا أسمر اللون، وكان مسيحيًّا متدينًا جدًّا.

اسمي سمير غادل مرقس، كنتُ قسًّا في دير الجبل في منطقة نائية في مدخل القاهرة، كانت حياتي تتخلّص في العبادة وإرضاء الربِّ بكل ما أوتيت من قوة؛ لذلك ذاع اسمي في الدير وخارجه، وكانت يأتي إلي بعض الناس لُمداواهم، فإنني طبيبٌ، وكنتُ أطيب آلامهم بدون أجر، ومن كان يصر كنت أوجهه ليضع ما يريد في تبرعات الدير، كنت أسكن في غرفة صغيرة بداخل الدير كانت صومعة أُراجع بها الكتب الدينية وغير الدينية، عندي نهم للثقافة والقراءة، وكنت أخرجُ مرةً واحدة في الشهر لزيارة أمي، هي مَن تبقّي لي وكانت تسكن في مصر الجديدة، وفي هذا اليوم تحركت في الصباح الباكر

لأقِف على قارعة الطريق أنتظر عربة أجرة يكون بها مكان خالٍ تصحبني معها لداخل القاهرة، وبعد مرور ربع ساعة تمكنت ركوب سيارة أجرة، وتحركت السيارة لتعبر بوابة القاهرة، وتشقُّ طريقها لمدخل القاهرة، وصل سمير لمنزل أمِّه، وأطمأنَّ عليها وباركها وبارك المنزل،وجلس يتسامر معها، ويسأل عن أحوالها حتى رن هاتفه ليهاتفه أحد الأشخاص، ويُعلمه عن قُرب بدء جلسة طرد الأرواح التي طلب أن يكون حاضرًا بها.

وهنا قاطع سمير صوت السجان وهو ينظر لنا من عواميد الباب ويقول:

– الساعة أصبحت الواحدة بعد منتصف الليل.. لِمَ أنتم مستيقظون حتى الآن؟ ألا يجب عليكم أن تخشوا هذا العنبر في الليل، إلا تعلمون من كان به وما حدث فيه؟

رد عليه نسيم، وقال:

– ماذا حدث هنا لا نعلم شيئًا.

تحدث السجان، وقال:

– كان هنا مسجون يُدعى قاسم، وكان دجالًا ومشعوذًا أصاب كل من كان معه في العنبر بالجنون، حتى بقي وحيدًا، هنا كنا نخشى أن نقترب منه، لا بد أن يكون بعض من الجن يساعد هذا الرجل، لقد رأينا هنا أهوالًا كبيرة قبل أن يعدم وحتى وهو يعدم، كان يردد: سوف أعود وأنتقم منكم.

لذلك تم تجديد هذا العنبر بعد رحيله.

فقلت له:

- لا تقلق يا سيدي، سوف نغفو على الفور.

وذهب السجان، وترك في أنفسنا أثرًا يشير برعب من المكان.

يا ليته ما قال هذا الكلام! يا ليته ما قال!

وبسرعة حتى لا تنتهي الليلة بدون تنفيذ الوعد الذي بيننا، وأشرت لسمير أو القس سمير، كما علمنا بأن يكمل قصته، إنني مشتاق إلى معرفة لماذا يسجن قسيس بجريمة؟، وبالفعل لم يهتم سمير بما قاله السجان وأكمل..

غادر سمير منزل أمه عائدًا إلى الدير، واستقلّ سيارة تاكسي، وصل سمير للدير الذي دقّ بابه، ولكن لم يُجبه أحدٌ، نظر لساعته فكانت في تمام السابعة، ما زال الوقت مبكرًا على نوم عم أبنوب حارس الدير، فتحرك نادر نحو الباب، وأخرج مفتاحه، وفتح الباب، ودلف للداخل، ولكن لم يره أحدٌ، لقد كان الدير أشبه بمكان مسكون، ولكنه تجاهل هذا، وذهب إلى صومعته، فلقد كان يحب الوحدة والقراءة، وعندما فتح غرفته وجد كبير الأساقفة والكثير من الرهبان بالداخل، أشاروا إليه بسرعة الدخول وغلق الباب، فقال سمير:

- ماذا يحدث هنا أيها الإخوة؟

فأجابه أحدُ الرهبان وقال:

- إنها عملية طرد الأرواح، لقد بدأنا في عملنا بشكل طبيعي، ولكن خرج من هذه الفتاة، الشرُّ، وسكن في كل أهل الدير ما عدا نحن، إنهم يذهبون خلفنا يُريدون قتلنا، لقد جن الجميع.

قال:

- سمير إهدي يا أخي قليلًا، فأنا غير مستوعبٍ لكلامك.

وهنا بدأ الدق على الباب ودوَّت أصوات غريبة شريرة.

فقال له الراهب:

-هكذا سوف تشاهد وتفهم.

وزاد انكماشهم للحائط خوفًا، ولكن سمير كان قسًّا مؤمنًا، وشجاعًا؛ لذلك أخذ قنينة من على مكتبه، وكان به ماء مُقدَّس وفتح الباب ليجد كل الرهبان الموجودين بالدير، ولكن أشكالهم كانت مرعبة تشبه الممسوسين في الأفلام، وقف أمامهم بلا خوفٍ، وكانت نظراتهم له تتطاير منها الشرر والغضب والكُره.

أمسك بقنينة الماء المقدس، وبدأ بقراءة من الإنجيل، وهو يقذف عليهم الماء المُقدَّس فتتصاعد أبخرة غريبة عن وجوهم، ويصرخون في ألمٍ مما شجع باقي الرهبان لاتِّباع سمير، وبالفعل بدا أنهم المسيطرون على الموقف حتى ظهرت الفتاة صاحبة الجلسة في مشهد سينمائيٍّ، فكانت طائرة في الجو وهي تضحك ضحكات شيطانية لها صدى

صوتٍ عالٍ أصابت الجميع بالخوف، ولكن سمير توجه ناحيتها، وألقى عليها الماء المقدس، وفتح كتاب الإنجيل الصغير الذي كان يحتفظ بيه في طيات ملابسه، وقرأ، وقرأ، ولكن فجأة احترق الكتاب في يديه، فعلم سمير أن كل ما يحدث سببه هذه الفتاة، تحرك سريعًا لغرفته ليخلع صليبًا كبيرًا مُعلّقًا في غرفته ويهجم بيه على الفتاة التي ارتفعت في الهواء لتمد يديها تمسك بالصليب وتدخله في قلبه وهي تبتسم وتقول:

– أراك في الجحيم.

بالطبع كما قلنا من قبل الشرطة لا تعترف بأي ظواهر غير طبيعية، والدير لم يستطع الوقوف بجانب سمير لأن عملية طرد الأرواح كانت غير قانونية؛ لذلك سمير يجلس الآن في هذا العنبر.

***

تدور الزجاجة الآن لتقف أمام باسم السعودي شاب في الخامسة والعشرين، قوي البنية، أسمر اللون، ولكن مَرَّ أكثر من أربع ساعات، متى يأتي دوري؟

تحدث باسم وقال:

– لقد كنتُ أحبُّ فتاةً، وكانت تبادلني الحب حتى انتهيتُ من دراسة الهندسة، وهي تبقت لها سنة في طبٍّ، وأُعلنتْ خطوبتنا رسميًّا.

وكان كل شيء على ما يُرام، وبعد مرور أربعة أعوام كانت في حملها الأول، وتعمل ليل نهار مثل باسم لكي يحصلا على مستقبل مُشرق لهما ولأولادهما، كان باسم يعمل في شركة مقاولات خاصة، ولثقة صاحب الشركه به تم ترقيتُه مدير مشروع من المشروعات الجديدة الكمبوند، كان مسئولًا عن بناء خمس عشرة فيلا، وعشر عمارات سكنية، وكانت الحياة جميلة في انتظار المولد الأول لهما، وفي ذات يوم جاء صاحب الشركة إلى الموقع، وتابَعَ الأعمال، ثم أتى إلى مكتبي وطلب مني تخفيض نصف ثقل الأسمنت حسب تعديل تم من المكتب الاستشاري الهندسي، وأطلعني على اعتمادات الاستشاري والمالك، ورغم رفضي، لم يكن بيدي أي شيء إلا تنفيذ الأمر وبعد مرور سبعة أشهر تساقطت خمس عمارات، وجميع الفيلات، وجاءت الشرطة، وبعد المعاينة وجدت الأبنية غير مطابقة للمواصفات المصرية أو العالمية أو مناقصة المشروع، حاولت شرح ما حدث، وبحثت كثيرًا عن الاعتمادات، ولكني لم أجد شيئًا، ولم يتبقَّ لديَّ غير شهادة صاحب الشركة الذي عندما حضر نظري لي نظرةً نارية مختلطة بالحزن، ونفى ما أدليت به في المحضر، وليس ذلك فقط ولكنه أحضر تذاكر سفر توضح أنه كان خارج مصر لمدة ثلاث شهور للعلاج، وأحضر أيضًا مستندات من مستشفى في ألمانيا تثبت ذلك، وبعضًا من الصور، ثم قامت النيابة بالتحقق في الأمر، ووجدت أنه صادق فيما قال، ولكن اللُّغز هنا من الذي أتى لي وقال وفعل معي ما حدث؟ حتى الآن لا

أعلم إنه شيء غريب ومُريب. دارت الزجاجة لتستقر عند ياسر عبد الرازق، لقد كان جسده نحيلًا أصلع، حاد الملامح، أبيض الوجه، تحدث ياسر وقال: باختصار شديد إني أعيش في المنيا في قرية صغيرة، وكان منزلي يطلُّ على الزراعة، كان في الصبح أجمل مشهد، ولكن في المساء كان مشهدًا مجهولًا مرعبًا، فلقد كانت لدينا روايات كثيرة عن الجن وغيره الذي سرق منا أحبابًا لنا واختفى عن الوجود، وبعد موت أبي ظللتُ في المنزل وحدي، فلم يكن لي غير أختي التي تزوجت من سنتين وذهبت إلى بني سويف مع زوجها، في الصبح أراعي الأرض، وفي المساء أتسامر مع أصدقائي، هكذا كانت حياتي حتى جاءني يومًا رجلٌ يبدو عليه الأناقة غريبٌ عن البلد، وأخبرني أن منزلي يستقر فوق مقبرة فرعونية ضخمة، سوف تدرُّ عليَّ أموالًا لا عَدَّ له، تحمَّست جدًّا، وأخبرني أنه سوف يُساعدني بمالٍ، وأنا سوف أوفر عمالًا للحفر، ولكن بهدوء دون أن يشعر بي أحد، بالفعل أحضرت ثلاثة من أصدقائي المقربين، واتفقنا على كل شيء، وبدأنا في الحفر في المكان الذي حدده شيخ أحضره هذا الرجل، وفي ثالث ليلة على بعد ثمانية أمتار بعد أن أخرجنا الكثير من التراب والمياه وجدنا سلمًا فتوقفنا كما أخبرنا الشيخ عندما نجد السلم توقَّف، وأخبرني لكي آتي، وبالفعل جاء الشيخ، وبدأ بترتيل الكثير من الكلامات غير المفهومة، ربما تكون تعاويذ؛ لأن حراس المقبرة كانوا أشداء، كما أخبرنا،وتعالت نبراته وصيحته حتى خفت من أن يسمعه أحد الجيران،

ولكن في هذه اللحظة تثمر في مكانه وتحولت عيناه للون الأحمر، واختنق وسقط مات، ليس ذلك فقط، ولكن ظهر دخان أسود غريب ملأ المترل، كان يحمل الشرَّ، كنت أعرف ذلك، هربت من المترل، وصلت القاهرة، استأجرت شقة واختفيت بها قليلًا، ثم أجريتُ اتصالًا بأحد أصدقائي في البلد، أخبرني أن الشرطة داهمت مترلي ووجدت به خمس جثث، فهمت أن الشيخ والرجل الأنيق فارق الحياة وأصدقائي الثلاثه أيضًا، ولكنه أخبرني أني مُتهمٌ بقتلهم، ومتهم أيضًا بالتنقيب عن الآثار بدون ترخيص، ذهبت للشقة المستأجرة وعقلي، كاد أن يُجن ولكن ما حدث كان أغرب، فلقد هاجمني هذه الدخان الأسود حتى خرجت من الشقة،وظِلّ خلفي حتى أوصلني لأقرب قسم شرطة، وهناك اختفى بالطبع، اعترفت بكل شيء، واستطاع المحامي أن يزيل عني تهمة القتل، حيث إن تقرير الطبيب الشرعي جاء في صفي؛ لأنه لم يستطع تحديد نوع الغاز الذي كان السبب في الاختناق، ولكني سُجنت بتهمة التنقيب عن الآثار بدون تصريح.

***

وتدور الزجاجة مرة أخرى، ولكن يتعالى صوت الزحف حول الغرفة مما أرعبنا حتى نادت أصوات بالكفِّ عن هذه اللعبة والخلود للنوم، ولكني أردت الاستكمال وبالفعل أقنعتهم، فلقد كنتُ مستبدًا وتوقفت الزجاجة أمام أغرب شخصية قابلتُها في حياتي، إنه ليل شوقي، حتى اسمه غريب، تحدَّث ليل وقال: لقد كنتُ دائمًا مختلفًا عن

باقي أصدقائي، كنتُ أميل للعزلة، وأحبُّ الجلوس منفردًا، كانت لي اهتمامتي التي تعتبر غريبة عن المجتمع، كنتُ أعشقُ النظر لأجساد الفتيان، لقد خُلقت هكذا من الخارج رجل ولكن من الداخل أنثى، حتى أنا لديَّ عضو أنثوي وليس رجوليًّا، وللأسف لم يتحرك أهلي لحل هذه المشكلة، وتعلَّل أبي أنه فضَّل أن أكبر هكذا وأختار ما بين رجل وأنثى، ولكني كنتُ أنثى وما زلت أنثى، وأرجو إبعاد أي أفكار عن ذهنكم، إنني أتحدث معكم بصراحة، وفي يوم ذهبت لطبيب مشهور، لكي أُجري فحوصات تمهيدًا لإجراء العملية، وفي هذا اليوم المنشود عندما حضرت لعيادة الطبيب، وجدت الكثير من البخور غريب الرائحة، ووجدت الطبيب بدل ما كان يرتدي بلطو أبيض يرتدي عباءة سوداء، وبدون أي مقدمة، وجدت اثنين يمسكان بي ويضعانني على سرير العمليات، وبدأ الطبيب يتلو بعض الطلاسم والتعاويذ الشيطانية الغريبة، فسألته:

– ماذا تفعل؟

فقال لي:

– إنك يا ليل لم تولد بدون سبب، لقد وُلِدَت ليأتي من رحمك ولد يُغيِّر مفاهيم العالم كله، إنه ابن الشيطان، إنه أبونا ومُخلِّصنا، لذلك نعبدُه، لقد قرأت عن حالات بنفس حالاتك هذا في الكتب

القديمة، ووجدت الطلاسم والتعاويذ التي ستأتي بالشيطان ليأخذ روحي ويمن عليك وعلى العالم أجمع بنطفة منه.

وفي تلك الأثناء كان أحد الاثنين الممسكين بي ذهب لإحضار حبل لربطي بالسرير، فاستغللتُ الفرصة مع قرب معدة الجراحة بجواري، والتقطت مشرطًا وضعته في عنق الرجل الآخر المُمسك بيدي، فسقط سريعًا، والتقطت مشرطًا آخر وهجمت على هذا الطبيب المجنون، فأرديته قتيلًا أيضًا، وعندما شاهد الرجل الذي كان يحضر الحبل وجهي المُغطى بالدماء هرب سريعًا، ظنًّا منه أن الشيطان أتى وخرجت أجري من هذه العيادة بسرعة، ولكن أوقفني الناس، وقبضوا عليَّ وأيضًا لم تستمع لي الشرطة، واتُّهِمت بقتل الطبيب دفاعًا عن النفس؛ لأنه كان يحاول اغتصابي!

***

ولم تَدُر الزجاجة مرةً أخرى، فلم يتبقَّ غيري، أنا أمجد الدميري وأنا! في هذه اللحظة اهتزت الجدران من حولنا، وبدأ الدم يتساقط منه في مشهدٍ غريب لم يفهم أحد ما يحدث، وجاء صوت جهوري يقول:

- لقد جاء ميعاد عودتي، تجهزوا للأضحية.

وهنا تحرَّك الشيخ ياسين نحو الجدار الذي بدأ يتساقط، ويظهر جدار آخر، إنه الجدار القديم للعنبر قبل تجديده، وهنا سقط جزءٌ من

الجدار، وسقط شيء آخر أمسكه الشيخ ياسين بيديه، لقد كانت سطورًا مكتوبةً على جلد مطويةً ومربوطةً، وكأنه عمل من أعمال السحر، فكَّ الرابط الشيخ ياسين ثم قرأ بصوتٍ مسموعٍ لنا:

إنه أتى لك عندما تتحضر الأضحية الحروف والعظام أنثى وتسع رجال، انثر الحروف سيجمعُه ويعيدُ لك الحياة، فتصبح عبدَه وتنفِّذ رغباته، وإن لم تنجح تسجن في سجنه حتى اليوم الموعود، وإن نجحت تملك الأرض، إنه العهد يخطُّ على جلدك، ويكتب بدمك لا مناص منه ولا هروب، تزج بهم بفعلك بمكان موتِك، فهم أضحيتك في مكان توشم فيه الطلاسم والتعاويذ، فيضيء الطريق للعابر ليمنحك حياةً رغدةً، فقط انْطِقْ باسمه لينتصر.

فكَّر الشيخ ياسين في الكلام قليلًا، ثم تحرَّك سريعًا نحو مكان نومه، وأحضر قلمًا وورقةً وبدأ يُسجِّل أسماء مَن كان في العنبر، ثم أخذ أول حرف من كل اسم (أ – أمجد، ب باسم، ل – ليل، ي – ياسر، س– سمير، ي– يوسف، ن– نسيم، ت– توفيق، ص– صبري، ر– رامي).

وبدأ عقله يعمل بأقصى سرعة لتجميع الحروف في كلمة أو كلمتين حتى نَطَقَ بصوت منخفضٍ:

– إبليس ينتصر، إنه نحن الأضحية، إن ما حدث معًا لم يكن على سبيل المصادفة، لقد كان كل شيء مدبَّرًا حتى الأنثى ليل تم اختياره

ليكون هنا لتكمل التعويذة، وهنا أضاءت الطلاسم والتعاويذ في المكان، وبدأت الأرض بالاهتزاز العنيف حتى سقط جميع ما كان في العنبر، وهنا دوَّى صوت أمجد وهو يقول: سيدي ومخلصي من العذاب، لقد أتممتُ عقدي، وأنتظر مكافأتي، نظر الجميع إلى أمجد وهمُّوا للفتك به، ولكن في هذه اللحظة، وجدوا ظلًّا أسود كبيرًا يأتي من خَلفِه ظِلالٌ سوداءِ تحمل سيوفًا غريبة المنظر، وهجم عليهم في سرعة، وتتساقط الأجساد، تسيل الدماء في العنبر، وفجأةً يتشكل شخصٍ آدامي يرتدي بدلة حديثة، ونظرة سوداء ويقول: شكرًا لك، سوف أكون خادمك لليوم الموعود، أومأ الظِلُّ الأسود برأسه إيجابًا، وأشار للظلال التي معه لتحمل جثث العشرة بمن فيهم أمجد، وتخترق الحائط عائدة لعالمٍ مُوازٍ لعالمنا، بينما الرجل الآخر الذي كان قاسم يتحرك نحو الجدار فيخترقه إلى الخارج، وكانت الشمس بدأت في الصعود، فيرتدي نظارته السوداء، وعلى وجه ابتسامة وهو ينظر نظرةً أخيرة للسجن، ويُدير ظهره مُغادرًا، وفي الصباح وُجِدَ جميعُ المسجونين في العنبر قتلة، وبدون نقطة دم واحدة، لقد كانت جثثهم مُتصلّدةً، ولم يعلم أحدٌ ما حدثَ في عنبر 3- أ، وهكذا انتصرَ إبليس أو الأصح نقول: إبليس ينتصر.

وليد أحمد



المبدول



يحدث كل شيء من حولنا من أجل هدف ما، ومن أجل غايةٍ مُحددة، تلك الغاية لن تُدرك ماهيتها أهي في سبيل الخير أم في سبيل الشَّرِّ إلا في نهاية المطاف، ستدرك حقيقة الأمر في تلك النقطة المُظلمة، نقطة اللارجوع، احذرْ من عواقب ما تفعله في تلك اللحظة، فلعلك غيَّرت قدرَك للتوِّ وأنت لا تشعر....

اتجهتُ للظلام رغمًا عني، لم يكن هناك سبيل للنور كي أصل إليه، وأتشبث به كما فعل البعض، وكانوا محظوظين بذلك، ستدرك ما أرمي إليه بعد أن أروي لك كل ما مررتُ به، ستعلم أنك مُرغَم على أمرك، مرغم على اسمك، مرغم على كل اختياراتك المحدودة، مرغم على نفسك شهيقًا وزفيرًا، مرغم على انتمائك وطموحك، مرغم على حبك وكرهك، مرغم على كل شيء.

اسمي لن يفيدك كثيرًا فما مررت به يمكن أن يحدث مِرارًا وتكرارًا، لقبي هو الأهم "نذير"، ويلحق به عدة كلمات "شؤم، غم، شر" من أجل توضيح ما يستشف من وجودي في أي مكان، الجميع يهاب وجودي، يهاب مرافقتي، يهاب المكوث في مكان مغلق معي دقيقة، وكي أكون صادقًا لديهم من التجارب ما يكفي لذلك، وإن كان بعض منها شائعات.

عليك أن تدرك أن وجودي معك في بعض السطور كفيل بأن يُصيبك ما أصاب الكثير ممن مكثوا معي أكثر من 5 دقائق أو أقل؛ لذلك كن سريعًا في قراءة تلك السطور، فأنا ما أنا عليه، وأنت من سيِّئي الحظ الذين وقع بأيديهم تلك السطور.

ما أنا عليه؟ كيف بدأ كل شيء؟ هكذا بدأت تدرك أنك في خطر ولا بد من استعجالي في سرد لك كل شيء منذ البداية حتى تلك اللحظة المشؤومة التي تقرأ بها، لذلك سأدعك تعيش معي من قبل مولدي حتى الآن، استمع بحرص وأنصت بتركيزٍ لعل كلماتي يكون بها مفتاح للهرب من ذلك الموقف الذي ينتظرك في نهاية المطاف، سأُسدي إليك الكثير من الخدمات في ذلك.

إنه أبي ذلك الرجل "ضخم الجسد قوي البنية، صاحب الشارب الكثيف واللحية الخفيفة، عيناه البنيتان الصريحتان، ووجه الأبيض المستدير، نظرته الجادة التي تتلاءم مع شعره الناعم المُصفَّف على

جانب رأسه" يدخل إلى بيت متعجلًا ومعه رجل وقور كبير السن "أبيض الوجه والشعر، يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، ويحمل مسبحة ضخمة، ويُتمتم كثيرًا مع ابتسامة لا تُفارق وجهه."

استقبلهم رجلٌ "كبير السنِّ يُشبه ذلك الشيخ مع سمار البشرة"، يبدو عليه الإرهاق، وهو مضطرب خائف الى حدٍّ ما، وقبل أن يصلوا إلى نصف الشقة "عالية الجدران، كثيرة الغرف، تحوي أثاثًا متوسط الحال يُوحي بتواضُع الحالة المادية لساكنيه، "كان هناك صوت قادم من غرفة مُحكمة الغلق بقفل لحطام وأصوات لعدة أشخاص يتشاجرون، أيضًا لعدة حيوانات ضارية تُصدر زئيرًا. عَلِمَ بأمره ذلك الشيخ، وبدأت تختفي ابتسامة متحولة إلى جدية وصرامة جعلته يلف سبحته بعناية على قبضة يده، ويُخرِجُ كتابًا صغيرًا من جيبه، ويبدأ بالقراءة وهو متجه إلى الغرفة ويفتح قفلها الصدئ.

ظلام وبرد مصاحب لعدة صرخات امتزجت ببعضها البعض متزامنة مع فتح الغرفة، الإضاءة لا تعمل لذلك أحضر الرجل "لمبة جاز" وأعطى والدي إياها الذي بلع ريقه للتوِّ وهو يخطو داخل الغرفة خلف الشيخ الذي علا صوته.

الظلام ثقيل كعسل النحل المُركَّز، ظلام خام لا تُبدِّده الأضواء الصادرة عن "لمبة الجاز" واحدة؛ لذلك دخل الرجل المرهق الغرفة مترددًا حاملًا "لمبة جاز" أخرى وأقوى إضاءة تلك المرة.

فور عبور الثلاثة عدة خطوات إلى الداخل أُغلقَ باب الغرفة محدثًا رجفةً في قلب أبي وذلك الرجل ضعيف الهِمة، بينما ثبت الشيخ في مكانه وهو يرسل كلماته في كل مكان داخل تلك الغرفة الواسعة عالية الجدران أشبه بالكهف المظلم قارس البرودة، لمعت عين في الظلام وهرول إليها أبي وذلك الرجل خلف الشيخ.

تلاقت عين الشيخ مع عينٍ دامية تملكها أُنثى شديدة الجمال رغم قُبح ما تفعله من أصوات تخيف وتشنُّجات مُرهِقة للأعصاب حتى أنك تسمع صوت طرقعة عظامها من تلك الحركات المؤلمة للنفس، تلك هي أمي.

بعد الكثير من الصراخ والدفع لأبي وذلك الرجل الكبير تمكّن الشيخ من تقيدها إلى فراشها المهشم خاوي الأمعاء المنتزعة من مكانها، أبي على يمين الفراش وذلك الرجل الخائف "جدي" على الطرف الآخر وبجانبه الشيخ ممسك بمسبحته، وما زال يتمتم حتى تكلم أحدهم وأسكتَ الجميع وأوقف قلوبهم.

ابتسم الشيخ وقال:

– أخيرًا! ده انت صبرك كبير أوي على العذاب، إيه اللي أخّرك كدة علينا؟

رد ذلك الصوت الأشبه بثور يتحدث من خلال سيدة قائلًا:

- ومفيش أي قوة تقدر تجبرني إني أسيبها، أنا لعنتها، وهي لعنتي، متوهمش نفسك وارحمها من اللي ممكن أعمله فيها، وفي المحروس اللي جاي يتجوزها.

ثم نظر إلى أبي نظرة غلّ.

ارتعد أبي، ولكنه استعاد رباطة جأشه، وهمَّ أن يتحدث، فأشار إليه الشيخ أن يصمت وقال:

- إنت بتهدّدنا، وانت اللي متطفل علينا، ده انت بجح أوي، ما تسيبها لحالها ودنيتها، دي لا من جنسك ولا من دينك.

قال ذلك الشيء متسرعًا:

- لو على الدين أسلم، ولو على الجنس أكونلها راجل لحم ودم، أنا لعنتها، وهي لعنتي، ابعدوا بس انتوا عنها، وسيبوها تختار اللي عوزاه.

قال الشيخ مبتسمًا:

- إنت مش في موقف تقول فيه شروطك، إنت قدامك اختيارين، تخرج وترجع تراضي قبيلتك اللي نبذتك من بعد اللي عملته، أو تموت ومحدش منهم هيفكر ينتقملك حسب العهد اللي بينا.

جاء الرد بصيحة عالية،وقال:

– أنا ممكن أكون مطرود من وسطهم ومقدرش أرجعلهم لكن أنا عندي أتباع، وخدم من جنسي ومن جنسكم واقدر آخد حقي كويس.

قال الشيخ بعد أن استدار واتَّجه إلى منضدة، والتقطَ من عليها كوب من الماء:

– مفيش فايدة من اللي انت بتقوله، وأظن انت عارف إني زي ما قدرت أحجّم قدراتك جوه جسمها أقدر أحجّمها بره وفي أي مكان، أخرج أو أموت.

ثم اقترب بفمه من الكوب، وأخذ يتمتم على الماء وأخذت "هي" في الصياح والصراخ.

قال ذلك الشيء بتعجُّلٍ:

– أنا متعوّد على الألم ومش هبعد عنها، أنا لعنتها وهي لعنتي.

ابتسم الشيخ، وأخذ يرسل بعض قطرات الماء على جبينها ووجهها ببطء وبتروٍّ، صراخ وصياح وتشنجات أودت بأحد أرجل الفراش حتى صاحت، وقالت بصوت ذلك الشيء المخيف:

– خلاص، خلاص، إنت تقدر تخرّجني، وتموتني، بس مش هتقدر تمنع اللعنة اللي طبعتها فيها.

ظهرت معالم القلق على وجهه الشيخ، وقال:

- لعنة إية؟، قول، أو تموت.

أصدر ضحكة ساخرة من الشيخ أصمَّت الآذان فزاد من حدة الشيخ، وأخذ يتمتم بقوة وازداد الصراخ وسط كلمات:

"هموت، ناري هتفضل".

حتى هدأت التشنُّجات، وبدأت ملامحها في الرجوع وتبدَّد الظلام فجأة بعد أن كان كالغيوم الكثيفة.

***

تمت الزيجة، وعمَّ الهدوء والسكينة والفرح أرجاء البيت الذي أصرَّ جدي أن يتزوج به، أبي معه وفي نفس تلك الحجرة، تناسى الجميع ما حدث طوال مدة ليست بالقصيرة، واكتملت الفرحة بظهور حملها الذي أسعد الجميع.

9 أشهر حضر ذلك المولود المنتظر، طفل جميل يحمل ملامح والده الرجولية، وعيني أمه الزرقاوين، ولديه من القبول ما يفوق الخيال، فكل من رآه أحبَّه، وتعلَّق به مدة أسبوع واحد قبل أن يتغير شكله وهيئته ويصبح أنا.

منذ نعومة أظفاري علمت أن هيئتي تلك وشكلي هذا لا يناسب بني الإنس، ملامحي ما زالت قريبة من ذلك الطفل لكنني قبيح ذو "فم

كبير مُدبَّب الأسنان وبشرة وردية حساسة من أشعة الشمس، وعين متسعة، رأسية، ورأس أصلع، وأذن مدببة، صوتي يخرج مفهومًا مؤلمًا للأذان،ضحكاتي مخيفة تلقي الرهبة في أي قلب صلب، يدي بها ثلاث أصابع وقدم بها مثلها غريبة الشكل."

تقبّلني الجميع على مضض، ولم يفلح معي أحد من المشايخ حتى ذلك الشيخ الذي هو سبَّب لعنتي، وسبب خروج ذلك الشيء منها، رحل بعد أن فشل في حل لُغزي، ولكنه قال لهم:

– دة مبدول، هو ابنكم بس ملعون الهيئة، من لحمكم ودمكم، بس بدلوه بصورة منهم وخلوا صورته عندهم ودي لعنة وصابت، وحلها في إيد الولد بس.

وقال لي:

– كل حاجه بتحصل من حولنا ليها غاية، وهدف معين، هتعرفها بعدين لما تبقى عملت كل حاجة، ووصلت لآخر المطاف، إنت قدامك طريقين الأول خير بس صعب، والتاني شر بس سهل، وعشان تعرف حقيقة نفسك جرّب الطريقين، وهتكتشف طريقك من غير ما تتوه، يا إما انت اتخلقت شر يا اتخلقت خير، إنت اللي تقدر تغير قدرك بنفسك.

ثم تركني، واختفى من دون رجعةٍ، وعلمتُ بعد ذلك أنه مات في بيته ذلك اليوم ليلًا جراء أزمة قلبية.

أنا الآن في تلك اللحظة أبلغ 20 عامًا، علمتُ فيها هُويتي، وطريقي، ولكني لن أخبرك، أنا إنسان في شكل آخر، منبوذ منكم، ومنهم، اتجهتُ للظلام رغمًا عني، بحث عن ذاتي الضائعة خلف شكل لا ينتمي لى، سأخبرك الآن ما توصلت له كي أظهر بشكل آدمي وصتكم، نعم استطعت ذلك بعد عناء كبير.

حصلتُ على خلاصي في عدة كلمات قرأتها من قبل وسأعيدها عليك الآن كي تتذكرها:

يحدث كل شيء من حولنا من أجل هدف ما، ومن أجل غايةٍ مُحددة، تلك الغاية لن تُدرك ماهيتها أهي في سبيل الخير أم في سبيل الشَّرِّ إلا في نهاية المطاف، ستدرك حقيقة الأمر في تلك النقطة المُظلمة، نقطة اللارجوع، احذرْ من عواقب ما تفعله في تلك اللحظة، فلعلك غيَّرت قدرَك للتوِّ وأنت لا تشعر"، أعلم أنك تتذكرها، ولكن في إعادتها فائدة لي فهي كلمات ملعونة يجب نطقها أو قراءتها مرتين وقد فعلت.

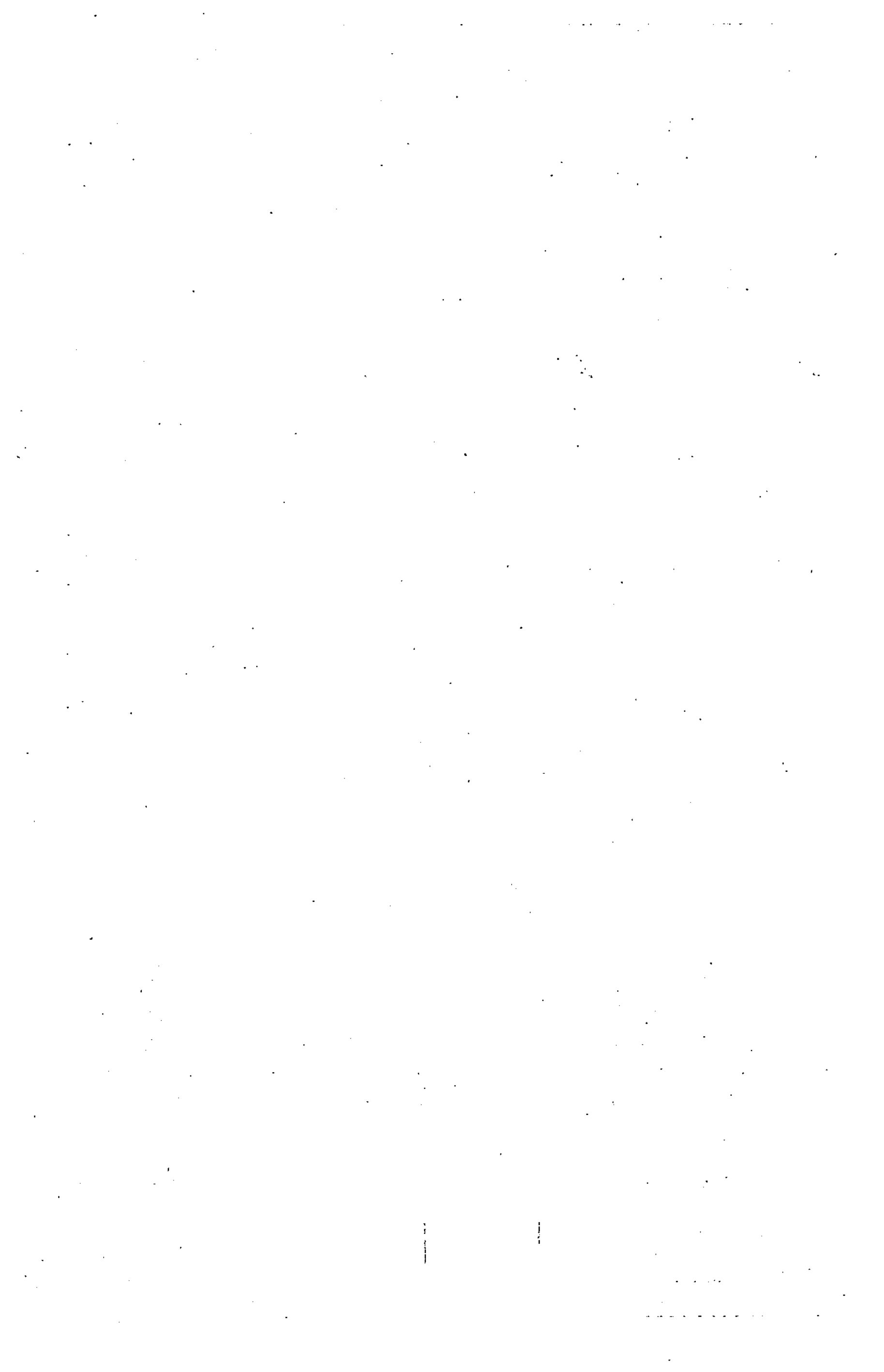
لعنتي لا تخصُّني أنا بذاتي، بل تخصُّ من قرأها قبلك ومن يقرؤها معك الآن ومن سيقرؤها بعدك، ستعلم أنك أكسبتي أسبوعًا من عمرك، أظهر بشكلك الخارجي وتظهرُ أنتَ في شكلي الخارجي، أسبوع فقط تتحمله كما تحملت أنا 20 عامًا، أسبوع تكون أنت المبدول بدلًا مني أو تكونين أنتِ المبدولة بدلًا عني، استترْ أو اهرب أو

اختبئ لمدة أسبوع، اختبئ في الظلام تحيَ وأنت تهاب أشعة الشمس والضوء كمصاص دماء، اختبئ من أهلك وأحبائك، اختبئ من الناس الرافضة لجوهرك والتي ستعاملك لمظهرك، أنت المبدول الآن لمدة أسبوع، ستأتيك بغتة وفي أي لحظة، لن أستطيع مساعدك في معرفة متى سيحين دورك في التحوُّل، وأن تكون مبدولًا فربما أنت أول من قرأ كلماتي، أو ربما أنت ثاني مَن قرأ أو ربما المئة أو الألف، أنصتْ إليَّ تمتع بكل دقيقة تحيا بها بشكلك الحقيقي، شكلك الداخلي والخارجي، لا أنت ولا أنا نعلم متى ستكون المبدول، ولكني سأُسدي لك خدمةً في ذلك، ستكتشف مَن يحبك ومن يكرهك، مَن سينتظر رجوعك، ومن سيُشهِّر بك، مَن سيساعدك، ومَن سيلاحقك، مَن سيحميك، ومَن سيعاملك كمسخ لا بد من سلب روحه.

أنت المبدول القادم عندما يحين دورك، وأنا على ما أعتقد سأظلُّ لبقية حياتي أتشكَّل في وجوهكم حتى أموت فلا تفزع من رؤية وجهك في أي مكان لم تذهبه من قبل لأني سأكون أنا أو مبدول غيرى قد أوقع بك، نسيت أن أخبرك أنه يمكنك إهداء تلك الكلمات الى أكثر الناس محبة إلى قلبك، وتريد أن تخدمهم في يوم ما او تتشفى فيهم، ألم أقل لك أني سأُسدي إليك الكثير من الخِدمات؟

محمود وهبة

وثالثنا الخوف



– ماذا بك؟

كانت هي البداية، أكثر سؤال ندمت عليه، لم أكن أعلم وقتها كيف سيبدل هذا السؤال حالي، كيف سيحيل حياتي جحيمًا، سؤال طالما طرحته على زملائي، أقاربي ، أصدقائي، حتى حانت المرة الأخيرة لطرح السؤال، بالطبع لن أطرحه ثانية أبدًا ولو تلوّى أمامي ألمًا، ولو تقلّب في التراب، وإن رجاني آناء الليل وأطراف النهار.. سأنسى هاتين الكلمتين للأبد، إن كان القليل المتبقي في عمري يسمى (أبد) تجاوزًا.

شاردًا كان ممدوح على غير عادته، رفيقي في المكتب وزميلي، حَسنُ المَعْشَر، لطيف، مرح، كانت العلاقة بيننا لا تتجاوز حدود الزمالة، علاقة طيبة بين شخصين يقضيان معًا أغلب ساعات النهار، لكنها لم تتطور قط لمرحلة الصداقة.. حتى جاء ذلك اليوم، لم يكن

طبيعيًا بالمرة، لذا جاء سؤالي منطقيًا: "ماذا بك؟" لكنه اكتفى بالنظر لي دون إجابة، حتى كررت سؤالي، حينها بدأ بالكلام ناظرًا للفراغ، وكأنه يُحادِث نفسه.

- لي جار في نفس البناية التي أسكن بها.

ثم توقّف وكأنه ندم على الحديث فقلت بحماسة:

- ما له جارك هذا؟

عاد يرمقني من جديد، أكاد أرى تردده الآن وحيرته بين أن يحكي لي، وبين أن يتوقف أو حتى يُهوِّن من الأمر أو يتظاهر بعدم جدوى الحديث، لكن ما أنا واثق به أنه كان بحاجة مُلحَّة للحديث، ولم يكن أمامه سواي، اتخذ قراره واندفع في الحديث دون النظر إليّ ودون أي احتمال لإيقافه، ودون أدنى رغبة مني أن يتوقف، فما رواه كان مثيرًا بحقّ.

- جاري أيمن اختفى منذ أكثر من أسبوع، ولم يترك وراءه أي أثر، يوم يومان وزوجته في انتظار ظهوره دون جدوى حتى عصف القلق بها، فلم تجد بدًّا من إبلاغ الشرطة، وبدأت تحقيقاتهم وأسئلتهم التي لا تنتهي، لكل معارفه، أقاربه، جيرانه، وبالطبع أنا واحد منهم، كانت علاقتي به سطحية جدًّا لا تتجاوز التحية وإلقاء السلام في كل مرة ألتقيه في المصعد أو في مدخل البناية، بالطبع لم يكن لديَّ أدنى معرفة حقيقية به أو أدنى علم بسر اختفائه، كما لم يكن لديَّ أي

فضول لمعرفة آخر نتائج التحقيقات، على عكس زوجتي التي كان الفضول يلتهمها لمعرفة سبب اختفائه، يمكن القول إن علاقتها بزوجته كانت أقوى من علاقتي به بمراحل وهو ما يمكن تفهمه في عالم النساء، لذا كانت دائمة السؤال عليها لمواساتها والتخفيف عنها، لم أعترض على ذلك، بل تفهمتُ الموقف تمامًا، وصار هذا الموضوع محورًا أساسيًّا وشريكًا حاضرًا في أي نقاش بيني وبين زوجتي في الأيام الماضية، تروي لي تفصيلًا ما تخبرها به زوجته، كانت الأمور طبيعية حتى قبل أسبوع من اختفائه، حين بدأ يتروي في غرفته، أخبر زوجته بأن لديه فيلمًا عجيبًا ينتمي لأفلام الرعب، عرض على زوجته مرارًا أن تشاركه المشاهدة، لكنها كانت ترفض بوضوح، فلم تكن أبدًا من هواة مشاهدة تلك الأفلام، أما هو فلم يتوقف يومًا عن تكرار مشاهدة نفس الفيلم طوال عدة أيام، بالطبع أي فيلم مهما يبدُ بديعًا، فلن تشاهده أكثر من مرتين او ثلاث على الأكثر خاصة أن الفاصل الزمني بين المرة والأخرى لا يتجاوز 24 ساعة، بالطبع معلومة كهذه لم يكترث لها كثيرًا رجال الشرطة ولا ألومهم، دائرة بحثهم تتلخص في أعداء محتملين أو معارف لديهم دافع للقتل، الغريب بحسب أقوال زوجته بأن كلا النوعين غير موجودين، فلا لديه أعداء ولا من مصلحة أحدٍ قتله.

عند هذا الحد توقَّف عن الكلام شاردًا لثوانٍ حتى بدا، وكأنه نسيَ محادثتي تمامًا، ولعله نسيَ وجودي أيضًا.. فابتسمت بينما صوتي يعلو في محاولة لاستعادة تركيزه موضحًا:

- على الأرجح حل اللغز عند زوجته، الحقيقة كاملة لديها، هذا ما ستكشفه التحقيقات قريبًا.

كنتُ أتحدث بثقة كمن هو على دراية بمثل هذه الأمور، وبمجرد أن أنهيتُ جملتي فلن أنسى أبدًا تلك النظرة التي رمقني بها، نظرة استخفاف، وسخرية لاذعة لا تصفها كلمات، ولكنه لخص كل سخريته وردوده في جملة واحدة، لم أُلقِ لها بالًا:

- لقد حصل على الفيلم عبر صديق له يعيش وحيدًا، لم يُعثر عليه هو الآخر منذ بدء التحقيق، أما أنا فقد حصلت بالأمس على قرص مدمج للفيلم عبر زوجتي.

حديثه يرمي لربط اختفاء الرجلين بالفيلم، وهو ما بدا لي غير منطقيٍّ تمامًا، الناس تختفي لأسباب كثيرة ليس من بينها مشاهدة أفلام الرعب، ودون مزيد من التفسير، ودون طرح مزيد من الأسئلة من ناحيتي هكذا انتهى الحديث بيننا.

لاحقًا لم أُعِر الموضوع مزيد من الاهتمام، ولو حتى من باب الفضول، انشغلت بمجريات الحياة وظننته كذلك هو الآخر، في الأيام التالية لحديثنا السابق ندر الكلام بيننا طوال تلك الساعات، فلم يكن

يقضي أغلب الوقت على مكتبه، وفي الوقت القليل المتبقي كان الصمت رفيقنا وثالثنا، ولكن شعورًا يسيطر عليَّ بأنه دائم النظر لي دون أن يسمح لعيوننا أن تلتقي، فما إن أُوجِّه نظري له يدير نظره في خفة ليبدو شاردًا. لماذا يُحدِّق فيَّ هكذا؟ ليس لديَّ فكرة.

انقضى الأسبوع، وجاء يومي الراحة لتنضم أحداث أسبوع كامل من العمل لسلة مهملات الذاكرة، ومع بداية أسبوع جديد عُدت لمكتبي الذي خلا من صديقي ليومين متتاليين، بالطبع من حق المرء الحصول على إجازة متى شاء، وبالتالي لم أكن مندهشًا من تغيُّبه عن العمل لليوم الثالث والرابع إلا حين علمت من زميل مشترك في العمل أنه لم يطلب إجازة، وأنه متغيب عن العمل دون إذن مسبق ، كما أنه لا يرد على هاتفه الذي بات مُغلقًا أو خارج نطاق الخدمة كما تعلن الرسالة الصوتية المسجلة، حينها قفزتُ إلى ذاكرتي آخر محادثة حقيقيَّة دارت بيننا، بدأ القلق يساورني ويتحسَّس موضعه في صدري قبل أن يحتله كاملًا عقب زيارة سريعة قمتُ بها لمنزله عبر عنوانه المُسجَّل لدينا في العمل، كانت زيارة أولى له ولكنها ضرورية لوأد هذا القلق. فأن يخبرك زميلك باختفاء جاره الذي يصرُّ على مشاهدة فيلم واحد عشرات المرات، ثم يتبع ذلك اختفاء زميلك الذي حصل على نفس الفيلم هو بحقٍّ أمر يبعث على القلق، فضلًا عن أن صاحب الفيلم الأول تبخَّر كذلك.

قابلت زوجته، وطفله ذا الثلاث سنوات لتخبرني زوجته بما لم أجرؤ على توقُّعه، لقد اختفى زوجها منذ بداية الأسبوع ، متغيب عن منزله وكل أقاربه لا يدرون شيئًا عن مكان وجوده، تظن أنها تعيش في مزحة سخيفة من تأليفه ليختبر حبَّها له، إثر شِجار نشب بينهما لإصراره على البقاء في غرفة مكتبه طوال ساعات مكوثه في المنزل، انتهى صراعهما ببقائه في غرفته مغلقًا بابها من الداخل، أما هي فبقيت بجانب طفلها في غرفة نومها حتى الصباح الذي جاء ولم يكن ممدوح بالمنزل فخمَّنت ذهابه للعمل، وحين لم يعد مساءً، شكَّت بأنه ما زال غاضبًا إثر مشاجرة الأمس، استمرَّ الحال هكذا حتى اتصلت اليوم بالعمل ليخبرها بغيابه أربعة أيام متواصلة، حسدتها على صبرها وطول بالها، هل فعل ذلك من قبل وغاب عن المنزل هكذا أيامًا متواصلة؟ فجاءت إجابتها أن نعم وعاد من تلقاء نفسه من جديد وكأن شيئًا لم يكن ولكنه حينها لم يتغيب عن العمل.

إذن هي تظن بأنه قادم حين يهدأ، لا شك يساورها في ذلك بينما أنا لديَّ من الشكوك ما يجعل صدري لا يتسع لها، فلم أجد بُدًّا من ضرورة سؤالها عن جارها الذي اختفى هو الآخر من قبل:

– هل عاد؟

– لا ، لم يعد وما زال البحث جاريًا عنه.

اندهشت هي لعلمي بهذا الأمر،وسرحتْ قليلًا فأخبرتها بأن ممدوح هو من أخبرني بشأنه، وبدا لي الأمر غريبًا بأنها لم تحاول الربط بين كلا الأمرين، قبل أن أغادر طلبت منها أن أُلقي نظرة على غرفة مكتبه، تعجبت لطلبي، ولكنها أذعنت له، دلفت إلى الغرفة، بها مكتب يقبع على سطحه جهاز كمبيوتر وخلفه مقعد مريح وفي الجوار أنتريه صغير مع عدد من المقاعد، كما يوجد دولاب كبير في أحد الأركان، طالت نظرة متبادلة بيننا أشعرتني بالارتباك، قطعتها بسؤالها:

– ماذا تريد أن تشرب؟ هل لك بكوب من الشاي؟

فأجبتُ على الفور:

– أكون شاكرًا جدًّا.

ذهبت لتعد الشاي، وهرولت أنا لجهاز الكمبيوتر لأنفذ ما نويته في حالة عدم ظهور ممدوح، ضغطتُ على زر التشغيل ليفرغ الجهاز محتوياته أمامي، قمت بجولة سريعة على الجهاز ثم ذهبت إلى حيث موضع الأسطوانة، ونسخت ما به على فلاش ميموري خاص بي، وما إن انتهت عملية النقل حتى أطفأت الجهاز قبل أن تعود الزوجة إليَّ حاملة كوب من الشاي على صينية فضية اللون، تناولت الكوب ثم رشفتُ منه على عجالة، وقبل أن أهمَّ بالرحيل أعطيتها رقم هاتفي وطلبت منها أن تخبرني متى جدَّ جديد أو إن احتاجت لأي أمر، صحيح أني لم أرتح لها كثيرًا، صحيح أني أظنها كاذبة في بعض الأمور،

صحيح أن حالها لا يعبر أبدًا عن زوجة اختفى زوجها منذ أيام، لكن الواجب واجب.

وهكذا عدتُ إلى منزلي أنا وشكوكي والفيلم، ثم انتحيتُ غرفة من الغرف مصطحبًا معي حاسوبي، ثم بدأت تشغيل الفيلم، الآن سأكشف لغز هذا الفيلم الذي يختفي كل من يشاهده، وربما تكون مجرد مصادفة وإذا كانت ذلك فستثبت مدى حماقتي بعد أن قدمت لنفسي دليلًا دامغًا لذلك.

إعلانات معتادة بدأ بها الفيلم عن أفلام ستُعرض قريبًا، استمر ذلك دقائق ثم تلا ذلك ظهور عبارة بخط عريض:

(يُنصح بعدم المشاهدة لمن هم أقل من 16 عامًا).

تحذير تجاري جدًّا بهدف جذب الفئة أقل من 16 عامًا تحديدًا، فالممنوع مرغوب دائمًا، وكذلك لإعطاء دفعة معنوية لمن تجاوز هذه الفئة العمرية، فإن راق له الفيلم فلسان حال الشركة المنتجة:

- ألم نقل لك إننا لا نمزح هنا؟

وإن لم يرق له فلسان حالها:

- أنت فقط ناضج بدرجةٍ كافية لتبتلع وتتحمل بشاعة ما عرضنا عليك!

بدأت أشعر بسخافة ما أفعل، لا بد أن ممدوح ومن قبله أيمن مختفيانِ لأسباب أخرى تمامًا لا علاقة لها بهذا الفيلم.

ما زلتُ بانتظار ما يحتويه هذا الفيلم، العبارة التي ذكرتها تحتل وسط الشاشة بثبات، لقد مر 5 دقائق ولا جديد ثم 10 دقائق، تقدمت بشريط التحكم في الوقت ربع ساعة، ثلث ساعة، نصف ساعة، يا للمزحة! ليس هناك أسوأ من مشاهدة فيلم بلا مضمون حرفيًّا، ليس هناك فيلم أصلًا.

ضحكت بمرارة وأنا ألعن غبائي الذي أوصلني إلى ما أنا فيه، كدتُ أبكي لفرط حماقتي، ثم بدا وكأن الفيلم يعلم ما أشعر به، فمُحيت العبارة التحذيرية بشكل مفاجئ لتظهر إثرها عبارة أخرى تكفلت بإلقائي في بئر من الغموض.

(الكبار فقط هم من يحملون هذا القدر من الغباء لمتابعة اللاشيء كل هذا الوقت، لذا فهم يستحقون ما هم مقبلون عليه).

– هل سيبدأ الفيلم حقًّا بعد كل هذا؟

ثم جاءت اللقطة التالية لتجيب عن سؤالي.

بدأت الإضاءة تغمر الشاشة لتفُصح عن حجرة مكتب أنيقة، وأسطوانة مدمجة مستقرة على سطح المكتب ثم يد ذكورية تقترب منها، تلتقطها لتضعها بحاسوب شخصي، ثم يتحرك الرجل مارًّا

بدولاب يتكون من ضلفتين - حاملًا حاسوبه حتى يصل إلى أريكة عريضة يجلس عليها واضعًا الحاسوب على فخذيه بانتظار ما سيعرض على الشاشة.

حسنًا الشخصية الأولى في الفيلم تتهيأ لمشاهدة فيلم ما..

تقترب الكاميرا من الشاشة حتى تخترقها لندلف إلى الأحداث التي تشاهدها الشخصية الأولى،نفس المشهد تقريبًا مع اختلاف الديكور.. رجل وحيد غير واضح الملامح يجهز نفسه لمشاهدة فيلم، إعلانات وعبارة تحذيرية تستغرق وقتًا طويلًا في العرض، إنه يتبع نفس الخطوات، تقترب الكاميرا من الشاشة، تدريجيًّا تعاود نفس الأحداث التكرار من جديد، شخص ما يعدُّ نفسه لمشاهدة فيلم.

تبًّا لهذه الدائرة المفرغة، ما هذا العته؟!

قلتها لنفسي ثم أوقفت الفيلم الذي أتابعه.

نهضت باتجاه المطبخ لأعد كوبٍ من الشاي وأثناء تحضيري له فكرت، إن كل من ظهروا بالفيلم كانوا بصدد ما كنتُ أنا نفسي أقوم به، التجهيز والجلوس لمشاهدة فيلم، وأنا بصدد مشاهدة فيلم رعب، فهل هم كذلك؟

الأمر يُثير فُضولي بقدر ما يستفزني.

ما نهاية هذه الدائرة المفرغة؟

عدتُ لحاسوبي بصحبة قدح الشاي، التعب يسيطر عليَّ، لماذا لا أؤجل مشاهدته للغد؟ لعل زميلي يعود وينهي وساوسي.

عدتُ من العمل، لا جديد، ممدوح ما زال غائبًا، أبدلتُ ملابسي بسرعة، كان قراري هو متابعة هذا الفيلم الغريب حتى النهاية لعلي أفهم.

وصلتُ إلى نفس النقطة التي توقّفتُ عندها، لم تعد الصورة واضحة كما بدأت، كلما دخلنا إلى شاشة داخل شاشة باتت الملامح والمعالم أقل وضوحًا ولكنها مفهومة، لا أدري لماذا أظن بأن الشخصية الخامسة مألوفة لديَّ، أشعر بأني أعرفه، أه لو تقترب الكاميرا من وجهه قليلًا، حتى ملابسه:السروال الأسود والتيشيرت الأبيض، أُقسِم أني رأيته من قبل، ولكن حين سرت رعشة قوية في جسدي فهمت:

"إنه أنا"..

نفس ملابسي، نفس هيئتي، صحيح أن وجهي غير واضح لكني لن أتوه عن نفسي، وعن منزلي، أنا أشاهدني بداخل الفيلم، أي جنون هذا؟ متى تم تصويري؟ أين وُضعت الكاميرا؟ كيف لم أنتبه لذلك؟ أسئلة كادت تخنقني..

أغلقتُ الحاسوب وقمت لتفتيش الشقة بحثًا عن أي كاميرا مراقبة، فتشت جميع الأرجاء والأنحاء، لا شيء.

عدتُ إلى الفيلم من جديد، لقد تملّكني الفزع، والفضول كذلك، جلست من جديد وأنا أمام الفيلم، لحسن الحظ لم ندخل إلى شاشة جديدة، أنا أشاهدني بداخل فيلم أشاهد فيلمًا، ثم بدوت فجأت أتلفّت حولي، أرهفتُ السمع لما يدور بداخل الشاشة، هناك صوت ارتطام خارج محيط رؤيتي داخل الشقة، أنا أقوم لأستكشف ما حدث خارج الغرفة يبدو أنني خائف في الفيلم، والحقيقة أنني خائف أكثر وأنا أشاهدني خائف، أي لعنة يحملها هذا الفيلم؟ ثم فجأة تقوم الشخصية الرابعة بداخل الفيلم بتثبيت الشاشة التي أمامه التي أنا بطلها دون أن أعلم كيف حدث ذلك، لماذا تبدو لي الغرفة التي يعيش بها الشخصية الرابعة مألوفة؟ أمعنت في التركيز أنا أعرفها لأنني كنتُ فيها اليوم، إنها غرفة زميلي ممدوح، الجنون سيفتك بي، هل ممدوح يجلس يشاهدني داخل الفيلم؟! أطفأتُ الحاسوب وأعصابي تحترق، ما معنى ما رأيته؟ وأين ممدوح؟..

الخوف يتملكني.. هذا الفيلم شيطاني، ملعون.

بسرعة أبدلت ملابسي، ونزلت إلى الشارع، كنتُ بحاجة إلى ونس، إلى بشر، أناس طبيعيين، لقد صرتُ خائفًا من منزلي، منزل تراقب فيه دون كاميرات هو منزل مخيف بحق، ما الذي يدور حولي؟

وبينما أسيرُ في الطرقات كان تفكيري مُنصبًّا على مشاهدته، إذن ممدوح هو الشخصية الرابعة في الفيلم، وكان مراقبًا ورآني هو الآخر في الفيلم، ترى من إذن الشخصية الثالثة؟

هل أعرفها؟ قشعريرة تسري في خلاياي وأنا أتصور بأن الشخصية الثالثة هي أيمن جار ممدوح، صحيح أني لا أعرف شكله، لكن ذلك ليس مستحيلًا، غدًا سأعلم، الوقت ليس مناسبًا الآن، جلستُ على مقهى بأحد الشوارع الرئيسية أشاهِد ما يعرضه التلفاز وأحتسي مشروبات لا طعم لها حتى أدركني الصباح، لم أذهب إلى العمل، واتجهت إلى العمارة التي يسكن بها كلٌّ من ممدوح وأيمن، لا أود مقابلة زوجة ممدوح ثانية، فقط أريد صورة لأيمن، لأتأكد من حدسي حصلت عليها عبر بواب العمارة بعدما مكنني من دخول جروب خاص بساكني البناية على أحد مواقع التواصل، حفظت شكله، وعدتُ للمنزل وأنا مذعور، دلفتُ إلى غُرفتي وحاسوبي،ومن جديد أنا والفيلم والخوف ثالثنا،بالطبع لم يَخِبْ ظنّي، وكان التسلسل كالآتي:

الشخصية الأولى مجهولة لي تعد نفسها لمشاهدة فيلم يحتوي على الشخصية الثانية المجهولة أيضًا بالنسبة لي، يجلس ليشاهد فيلمًا بطله هو أيمن جار ممدوح زميلي الذي يشاهد فيلمًا بطله هو ممدوح نفسه الذي يشاهد فيلمًا بطله هو أنا، لقد قمت بإعادة نفس الأحداث عشرات المرات وأنا في كامل تركيزي منتبه بكل حواسي حتى أصل لهذه النتيجة.

ها هو اليوم الثالث دون أن أذهب للعمل، لقد سكنني الذعر، وسيُفتضح أمري إن رآني أحدُهم بالعمل، عدد من الإجازات المتتالية

من رصيدي لن يضير شيئًا، عدتُ لمشاهدة الفيلم عند اللقطة التي سمعت فيها صوت ارتطام بالمنزل، ويبدو أنه ما حدث للشخصيات الخمسة جميعهم، لقد توقفوا عن المشاهدة واحدًا تلو الآخر.

حتى وصلنا إلى الشخصية الأولى تغادر الغرفة بحثًا عن صوت الارتطام والكاميرا تتبعها في حذر، لا نرى إلا ظهره وهو يسير متوجسًا، فجأة ينقطع التيار وتغرق الأحداث في الظلام، يرتجف كعصفور مبلل في ليلة شتاء ممطرة، يبحث عن أي مصدر للضوء، فلا يجد يكتشف أن الإضاءة الوحيدة المتاحة هي المنبعثة من شاشة حاسوبه، يعود إليه بخطوات مترددة.

لو أن ما توصلت له صحيحًا فلا بد أن الشخصية الثانية في الفيلم هي أحد معارفه، إن الخوف الذي أشعر به الآن هناك خمسة على الأقل شعروا به، اثنان منهم علمت باختفائهم، فهل الآخرون اختفوا أيضًا؟ وكان ذلك آخر ما جال بخاطري قبل أن أسمع صوت ارتطام قوي أسقط قلبي في قدمي، شعرتُ بوخزة في صدري جراء هذه الخضة، خرجتُ لأستكشف مصدر ذلك الارتطام، أتنقل من غرفة لغرفة، مهلًا، إنه نفس ما يتعرض له الشخصية الأولى وقبل أن أتحقق من استنتاجي انقطع التيار الكهربي ليحتل الظلام كل ركن في منزلي، تذكرت بأن هاتفي غير مشحون وليس لديَّ كشاف أو حتى شمعة تُبدِّد هذا الظلام، وبينما أنا أتحرك في المنزل مفزوعًا على غير هدًى تحت الإضاءة الخافتة لشاشة الحاسوب، عدتُ فورًا إليه لأجد عبارة مثبتة خطت باللون الأحمر القاني على الشاشة..

(ألم تفهم بعد؟ أنت لم تعد وحدك في المنزل).

كان هذا كفيلًا بجعل قلبي يقفز على وشك الخروج من حلقي، أغلقت الشاشة على الفور. ليطبق الظلام على أنفاسي اللاهثة ودقات قلبي المتسارعة.

أين أنت يا ممدوح، أين أنت يا أيمن؟ ماذا حدث لكما؟ وما المصير الذي ينتظرني؟ ما هذه الدموع؟ هل أبكي من الخوف؟

وقبل أن تجف مقلتاي عاد التيار الكهربي، كدت أقفز من الفرحة كالصغار، غادرت هذه الغرفة التي لم أعد أُكِنُّ لها أو لمحتوياتها أي وُدٍّ بما فيها حاسوبي هذا، لن أشاهد هذا الفيلم مجددا، سأنام وأنسى كل تلك التفاصيل، سأعود لحياتي وأطرد هذه الهواجس من رأسي، اتجهتُ إلى غرفة نومي فجرًا، وضعت رأسي على الوسادة، وتجاهلت كل ما سمعته من أصوات بالخارج، خطوات، همسات، أنات، لن أخرج حتى تعود الشمس أو أموت في سريري، نمت بعمق، نمتُ ونامت معي كل الحواس، ولكن المؤسف أني حين استيقظتُ، كانت الشقة تسبح في الظلام، متى انقطع التيار؟ هل عاد الليل من جديد؟ لقد مر نهار كامل بينما أنا نائم، أريد معرفة الوقت،لا وسيلة لا ذلك وسط هذا السواد الحالك سوى حاسوبي، عدتُ إلى الغرفة لأجد حاسوبي يعرض الفيلم، هنا تسارعت أنفاسي ودقات قلبي عازمين على العثور على تفسير غير

مخيف دون جدوى، لقد أغلقتُ الحاسب قبل نومي، أنا متيقن من ذلك، نظرت إلى الشاشة لأجد عبارة جديدة..

(إنهم بانتظارك)

الفيلم يدعوني لمشاهدته من جديد، لم أعد أدري من يشاهد من؟ جلست مذهولًا مرعوبًا لأكمل المشاهدة، أنا والفيلم والخوف ثالثنا من الواضح أنه لا أحد يعلم بأنه مراقب، جميعهم يراقب غيره، أما أنا أراقبني معهم، جلست متجاهلًا شعورًا يغمرني بأن هناك عيونًا مثبتة على ظهري ترقبني من الخلف، وشعورًا بأن هناك أياديَ ستلتفُّ حول عنقي في أي وقت، وشعورًا بأن قلبي يعلن العصيان، وجسدي يرفع الراية البيضاء معلنًا الاستسلام في مواجهة المجهول.

عدتُ من جديد أُحدِّقُ بهم وأنا أرى كلًّا منهم يُراقب الآخر حتى وصلت الشاشة إلي، هأنا من جديد بداخل الفيلم أشاهد حاسوبًا داخل الأحداث، لا أدري ما يعرضه لعدم وضوح الصورة.

ولكن فجأة، تتركز الكاميرا على الحاسوب تقترب أكثر وأكثر أخيرًا سأعرف ماذا أشاهد، كانت رسالة مثبتة على الشاشة تقول:

(فلتتقدم إلينا طوعًا بدلًا من أن نباغتك. فقط افتح الخزانة التي أمامك)

بسرعة تحرّكت الكاميرا لتعرض نفس الرسالة على حاسوب كل الشخصيات لتعود من جديد لترصد ردود أفعالهم، وهم جلوس في ظلام تامٍّ مثلي يتلفتون يمينًا، ويسارًا ثم مثبتين عيونهم على أحد الأركان يبدو أن كل الشخصيات لديها خزانة في نفس الغرفة بما فيهم أنا، وشعور واحد لدى الجميع بأننا لسنا وحدنا أبدًا، عندها وفي نفس التوقيت، قام كل منهم بترك الحاسوب، والوقوف في مواجهة الخزانة، سوداء عريضة ضخمة تكفي لإخفاء نصف شياطين الأرض، الكاميرا تنتقل من شخصية لشخصية وجميعهم يتحرك باتجاه الخزانة عدايَ، فجأة تتوقف الكاميرا لتقف عندي وأنا جالس بينما الآخرون اقتربوا أكثر من اللازم منَ الخزانة، لتتوقف الأحداث-فجأة داخل جميع الشاشات، وكل شخصية تقف في مواجهة الخزانة لا يفصله عنها سوى أقل من نصف متر، لقد توقف الفيلم عند هذا الحد، تلا ذلك على الفور طرقات منبعثة من داخل الخزانة التي بغرفتي، إنهم هنا، لا أدري من هم، وما كُنههم، ولكنهم هنا، يزداد صوت الطرقات ارتفاعًا، تزداد الرجرجة كما لو كان هناك حيوان بحجم كلب يتقافز بالداخل،لا يمكن وصف مدى رعبي ولا كمية الأدرينالين التي أفرزها جسدي، نهضت متجهًا إلى الخزانة، اقتربتُ وأصوات ملعونة منبعثة تكاد تزغرد فرحًا بقدومي، نظرت إلى الخزانة التي تهتز بلا هوادة مددتُ يدي لأفتحها وقلبي يشعر بأنها لحظاته الأخيرة، بكلتا يدي فتحتُ الضلفتين العريضتين قبل أن تمتد لجسدي أربعة

أزواج من الأيادي تجذبني بعنف للداخل، لم أتبين لم أفهم، ثم صرخة مدوية انطلقت من حلقي، ولكني الوحيد الذي سمعتها قبل أن تمتد أيادٍ أو مخالب لا أدري لتُخرِسَ فمي للأبد.

أحمد أسامة

الفهرس



يحدث كل شيء من حولنا من أجل هدف ما، ومن أجل غاية مُحدَّدة، تلك الغاية لن تُدرك ماهيتها أهي في سبيل الخير.. أم في سبيل الشر إلا في نهاية المطاف، ستُدرك حقيقة الأمـر في تلك النقطة المُظلمـة، نقطة اللارجوع، احذر من عواقب ما تفعله في تلك اللحظة، فلعلك غيّرت قدرك للتو، وأنت لا تشعر...

المبدول
للكاتب / محمود وهبة

جلس يُدخن (غليونه) الإنجليزي، بعدما تمتع بإفطار جيد، تناول مُفكرته، وجلس يُدون بعض المُلاحظات، قطع تأملاته صراخ ضعيف قادم من الشرفة، إنه العصفور يستغيث من شئ ما، هرول (كارتر) إلى هناك لكنه لم يصدق ما رأى، أفعى كوبرا ضخمة تلتهم العصفور المسكين، ليتناثر ريشه الذهبي مُختلطاً بالدماء في كُل مكان، ثم فرت هاربة.

بكى (كارتر) عصفوره الحبيب، لكنه لم ينس عينا الكوبرا أبداً، إنها هي، وكأنها قد خرجت لتوها من تاج الملك.

رسالة الفرعون الأخيرة (كوبرا الملك)
الكاتب / إيهاب عصمت

– مريم يجب ان تخبرني الآن، ماذا حدث؟! ..
– الراهبات قتلوا جميعًا ..
– أعلم .. ولكن اي سطو يمكنه قتل تسع سيدات قبل ان تطلق احداهم صرخة استغاثة.
– أنت تعلم ان المكان بعيد .. كما كل شيء حدث بسرعة شديدة
– هل يمكن أن يحك لي ما حدث بالتفصيل ..
– حسنًا ..

عاهرة المعبد
أحمد شوقي مبارك

Cover by #ahz_art


9789774884900



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج العربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01144552557